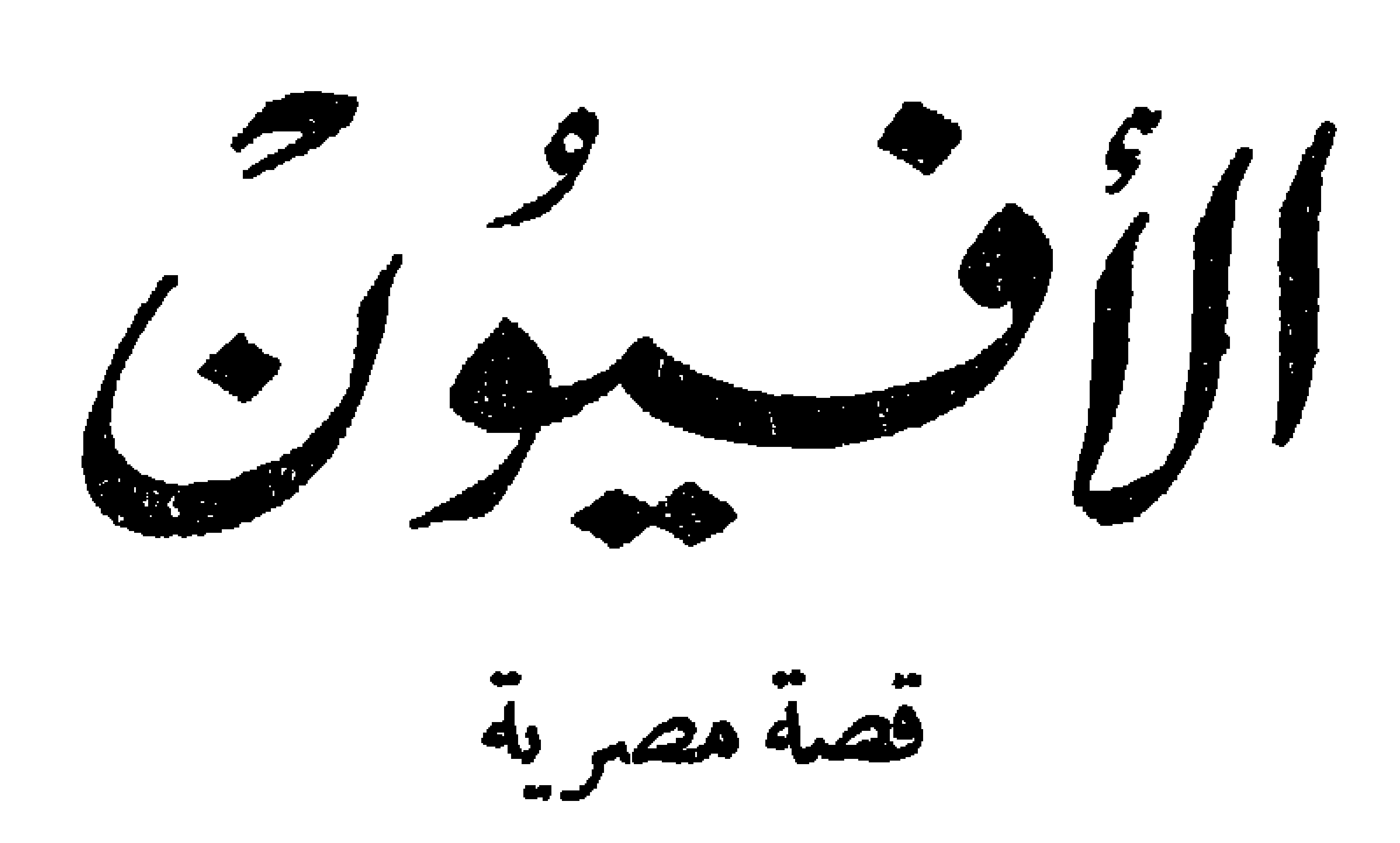
الأفيون

مصطفى محمود



مصطفى محمود

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

الغلاف بريشة الفنان بهجت عثمان

واللوحات الداخلية بريشة الفنان جمال كامل

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة

اللهم يا جامع الشتات .. ويا مفرج الكربات ويا محيي العظام الرفات..

اللهم يا مهد الكرامات . . ومنزل الآيات البينات . .

اللهم أسألك بحق آياتك أن تجود على بقضاء حاجتى . . وتجعل ليلى الداجى نهاراً جهاراً . . وتنفخ لى فى هذا التراب ذهباً نضاراً .

اللهم بحق أسمائك . .

بحق كلماتك . . كهيعص . . كهيعنصاد .

كهيعنصاد . . الأضداد تخرج من الأضداد . . من النار الرماد . .
ومن الرماد خلق العباد فلتكن مشيئتك بأن يكون ذلك الرماد
ذهباً بإذنك . . يا واحد . . يا أحد . . يا صمد يا كريم . . جواد . .
كهيعنصاد . .

كان الرجل الهضيم الشاحب ذو الوجه الترابى يتلو هذه التعزيمة
على البوتقة التى يضعها على النار ويمزج بها مقدار عشر قمحات من التوتيا
الحمراء بمثل وزنها من الألمونية ويضيف إليها ٢١ قمحة من الصابون
النابلسى . . تماما كما ورد فى كتاب « سحر الكهان فى تحضير الجان » . .
فى باب صناعة الذهب . . وبعد كل تقليبة للمزيج كان يصرخ بأعلى
صوته . . كريم . . جواد كهيعنصاد . .

ولنزيدك معرفة بالرجل نقول لك إنه « محمد عبد المقصود الهادى
المهدى » ليس شيخاً كما يتبادر إلى الذهن . . ولكنه أفندى . .
باشكاتب فى أرشيف وزارة الأوقاف . . رجل كالح البشرة . . ترابى
اللون فى لون الدوسيهات المغبرة التى يكدسها كل يوم على مكتبه . .
عيناه جاحظتان على الدوام . . سنه ٤٥ عاماً . . ومع ذلك فهو يبدو
فى السبعين ربما بسبب شعر لحيته الذى ينمو مرسلا بغير نظام . .
وربما بسبب الهم والفقر وكثرة العيال . . فهو أب لستة من العيال
معظمهم مرضى أغلب أيام السنة . .

والذى نعرفه الآن من تاريخ حياته أنه منذ أكثر من ٢٥ سنة
كان طالباً نجيباً . . وأنه دخل كلية الحقوق . . وكانت له حينذاك

أحلام عريضة فى مستقبل باهر فى المحاماة يشق به طريقه إلى الإسم المرموق .

ولكنها كانت مجرد أحلام لم تدم أكثر من سنة اضطر بعدها أن يهجر دراسته ليبحث عن عمل . . فأبوه الشيخ عبد المقصود الهادى المهدى صاحب مكتبة المهدى بزقاق الصنادقية بالأزهر سقط مشلولا . . نزلت عليه النقطة كما يقول العوام فترك مكتبته ومن يومها قل الوارد وانقطع البيع والشراء وتدهور حال الأسرة . .

وكان لابد أن يبحث محمد عبد المقصود وهو كبير العيلة عن وظيفة لسد رمق الأفواه التى لا تكف عن طلب الطعام . .

وهكذا استقر به المطاف فى وظيفة بالدرجة الثامنة فى مكتب بأرشيف وزارة الأوقاف . . ووضع كل مستقبله على الرف . .

ومنذ ذلك التاريخ وهو قابع هناك هو وأحلامه مع الأوراق الدشت .

ولكن محمد عبد المقصود لم يقطع صلته بالعلم طوال هذه السنوات . . شكراً للركن الهادىء تحت المصباح الجاز فى مكتبة الصنادقية التى ورثها عن أبيه واتخذ فيها مجلساً يقضى فيها أوقات فراغه بدلا من إنفاقها فى المقاهى . . وشكراً لطباع التلميذ النجيب التى ظلت تلازمه والطموح الذى ظل يدفعه دائماً لتقليب أى كتاب يقع تحت يده والاستغراق فى صفحاته . .

وفى مكتبة المهدى غرق عبد المقصود فى عشرات الكتب الصفراء أمثال . . مجربات الديربى الكبير . . الإلهامات الربانية . . تسخير

الشياطين فى وصال العاشقين . . بردة المديح . . كتاب الرحمة فى الطب والحكمة . . تذكرة داود . . شمس العرفان . . سحر الكهان فى تحضير الجان . . الكلمات السرية فى مناجاة الأرواح السفلية . .

وهى كتب فتحت له عالماً آخر من وراء هذا العالم . . وحركت فى نفسه أشواقاً أخرى غير أشواق هذه الدنيا . .

وفى سكرة هذه الأشواق . . كان عبد المقصود يجد راحته من ضوضاء أرشيف وزارة الأوقاف ومن أمراض العيال التى لا تنتهى ومن طلبات زينب التى لا تنفذ . .

وزينب هى زوجته . .

وما كنا لنقف عند زينب فى هذا الوقت المبكر من رواياتنا لولا أن زينب تغرى كل من يراها بأن يقف عندها ويتفحصها . . ويدور حولها . . أقول يدور حولها . . لأن من يرى زينب من الخلف فى العادة يدور حولها ليراها مرة أخرى من الخلف أيضاً هذه مسائل يعرفها أولاد البلد . .

والظاهر أن زينب تعرفها هى الأخرى جيداً . . لأنها تحرص فى تفصيلها لفساتينها دائماً على أن تكون « مقمطة » من الخلف . .

ولا أحب أن يتطرق الشك إلى ذهن القارىء بهذا الكلام فهذه طباع عادية عند كل بنات حواء كل واحدة تتفنن فى إظهار الشىء الذى تتميز به . . وتتفوق فيه . .

ومع ذلك فزينب ليست من صنف النساء الذى تراه فى شارع

عماد الدين فهى من نوع آخر .. وهى باستثناء هذه العادة فى «تقميط» الفساتين من الخلف فهى تحرص دائماً على ألا تكشف أى جزء من جسمها . . وكل فساتينها بكم طويل وصدر مقفل . . وهى امرأة بلدى . . طريه هذا صحيح . . ولكنها لا ترغر إلى الرجال هذه الزغرات الجريئة التى تراها فى عيون البنات المودرن . . وأنت لا تشم منها روائح الأربيج والشانيل . . وإنما تشم روائح أخرى يعرفها العطار . . روائح تعطعط وتملأ الخياشيم وتمتزج بروائح الزنجبيل والمغات واليانسون وتختلط بها وتصنع نكهة لذيذة تشبه نكهة الصحون الشرقية المثقلة بالبهارات الحراقة . .

وابراهيم المهدى . . الأخ . . مهندس الزراعة الأعزب . . هو مهدى آخر لا تكاد تصدق أنه من العيلة . . فهو رجل مبسوط عنده عربة وتجرى الفلوس فى يديه مثل الرز . . وهو يسكر . . ويقامر . . ويصاحب الارتيستات . . وهو محدث لبق خفيف الدم . .

ولا أحد يعرف من أين يأتى بهذه الفلوس . . وهو المهندس ذو المرتب المحدود . .

ويبدو أن أخاه عبد المقصود يعرف السر لأن شيئاً ما فى نفس ذلك الأخ يظهر فى عينيه وعلى وجهه حينما يلتقى بإبراهيم . . شيئاً من عدم الارتياح يمازجه الإشفاق والحيرة . .

شيئاً ما يظل معلقاً فى الجو طالما هما معاً . . تشعر منه أن عبد المقصود لا يريد أن يرى أخاه ولا يريد لهذه المقابلات العارضة

أن تطول . . وهى مقابلات تتكرر مرة كل أسبوع وأحياناً كل شهر . .

ولو استطاع عبد المقصود لجعلها كل سنة . . أو لربما قطعها من دابرها . . وهى رغبة تصارعها رغبة أخرى من حنين الدم . . وبقايا رابطة من أخوه قديمة لا يهون على الإثنين أن تنفصم . .

ماذا يبقى لنا من العائلة . .

الشيخ الهادى المهدى . . ملقى فى البيت مع أكبر أولاده مشلولا شللا نصفياً . . لا يقدر أن يبرح فراشه . . تقوم على خدمته أم محمد امرأته . . أم الأولاد . . وهى امرأة شاب رأسها واضمحلت قواها . . ولكنها ما زالت تجرر نفسها لتظل إلى جوار رجلها .

أولاد عبد المقصود وأكبرهم « فتحى » ٢٠ سنة فى السنة الأولى بكلية التجارة . . ولد فظ خشن الصوت فى طبعه صرامة وجفوة . . دخل السجن عدة مرات فى قضايا سياسية . . ويعيش منفصلا عن بقية البيت عاكفاً على كتبه . . وهى دائماً كتب كبيرة أجنبية . .

وكل هذه الدستة من البشر تسكن فى البيت القديم الآيل للسقوط فى حى الصنادقية بالأزهر . .

ونحن لا نرى من هذه الدستة الآن إلا عبد المقصود فى غرفته التى أغلقها على نفسه وراح يحمجم ويحمحم . . ويبسمل ويحوقل . . ويقرأ التعازيم على المزيج الذى يقلبه على النار ليحوله إلى ذهب .

وقد مضت عليه ساعات على هذه الحال .. دون أن يتحول المزيج إلى ذهب أو حتى إلى رصاص . .

نفس الحكاية كل مرة . .

لابد أنه نجس . . أو غير خالص النية . . ولهذا لم تأت الأرواح لتلبية ندائه . .

* * *

وقام عبد المقصود ليتوضا . . وقد أخذه الوسواس فراح يغسل كل جزء من جسمه أربع مرات وخمساً ثم يعود فيغسله من جديد وهو يهمهم بالأدعية والابتهالات .

ودخل إلى المرحاض .

لو أنه تشجع وقرأ تعزيمة المرحاض . .

هذه الكلمات القليلة التى تعلمها وحفظها من كتاب « الكلمات السرية فى مناجاة الأرواح السفلية » . .

لو أنه قرأ هذه التعزيمة أربعة آلاف مرة كما يقول الكتاب لظهر له ذلك العبد الأسود القصير ذو الطرطور وبيده المطرقة والسندان ومفتاح كنوز سليمان ليقول له .. لبيك .. لبيك.. عبدك بين يديك .. الجنة بين رجليك . . وبحور النعمة حواليك . .

بضع كلمات قليلة يتمتم بها فتنطلق الأرواح اللعينة من عقالها وتسعى إليه طائعة مختارة . .

ولكنه خائف . . متردد . . وجل . . تمشى فى بدنه الرعدة من رأسه إلى قدميه كلما بدأ يهمهم بهذه الكلمات الشيطانية . .

يا صرصار . . يا عامر هذه الدار . . يا ساكن أسفل جلقطار . . يا إبليس فى النار خالد فى النار . . عشتار عشتار جلقطار . . اخرج من حافر الحمار . . من تحت الداقوس الدوار . .

أعوذ بالله . . إن جسمه يرتعد . . وأسنانه تصطك . .

إنه لا يستطيع أن يكمل هذه الكلمات اللعينة . . فما الحال والأمر يحتاج إلى تلاوتها أربعة آلاف مرة .

أربعة آلاف مرة . .

مرة بعد مرة .. وهو جالس هكذا القرفصاء فى المرحاض وبخور البصل يطقطق من حوله ويصعد إلى السقف ويملأ المرحاض بضباب خارق نفاذ . .

ومن أسفل أسافل الجحيم يخرج ذلك الصرصار . . خادم عرس النار . .

أعوذ بالله . .

لقد أصبح يخاف من كل صرصار من ذلك اليوم الذى بدأ يفكر فى تلاوة تلك التعزيمة .

ولكن خوفاً آخر يتجاذبه مع ذلك الخوف . . هو خوف الفقر والمرض والفضيحة . .

إنه كثير العيال . . قليل المال . . وهو يريد أن يعيش مستوراً .

إنه لا يبحث عن غنى . . أستغفر الله . . وإنما يريد الستر .

الستر . .

الخمسة والعشرون جنيهاً لم تعد تستر على هذه الدستة من البشر . . وهو يريد أن يموت مرتاح البال مطمئن الضمير إلى أن ذريته ستعيش مستورة من بعده .

إن عائلة المهدى عاشت طول عمرها مستورة . .

ولـكن ماذا بيده أن يفعل ؟ . .

لا شيء يتم بدون إرادة الله . . ولابد أن الله يرى الخير كل الخير أن يتركه يعيش هـكذا فى ذلك الضنك وسوء الحال . .

وحاشا لله أن يرتـكب المعصية ويطلب العون من إبليس . .

أستغفر الله . . ولـكن الجوع كافر والحاجة لا ترحم . .

* * *

ـــ سى عبده . . سى عبده . . س عبد المقصود . .

صوت زينب من الغرفة البعيدة .

آه من النسوان حبائل الشيطان .

غمغم عبد المقصود ودمدم . . وحمحم . . وجمجم . . واستعـاذ بالله . . وأخرج رأسه من الباب . .

ـــ عاوزه إيه يا وليه . .

ـــ الواد محمد دراعه وارم مطرح عضة الـكلب .. حانعمل له إيه ..

ـــ مش قلت لك تحطى له لبخة « بذر خلنجان » . .

ـــ عملت اللبخة والواد شالها ورماها . . قال لازم يروح لدكتور .

ـــ والدكتور حايعمل له إيه . .

ـــ أهو برده يبقى اسمه دكتور يا سى عبده وعنده علم .

ـــ علم إيه . . هو علم الدكاترة ده علم . . العلم كله فى تذكرة داود . . كل الحكمة أصلها من تذكرة داود . . جالينوس هو اللى علم الدنيا الحكمة كلها ..

ورنت ضحكة لها ذيل فى أذن عبد المقصود . .

ـــ وجلانوس ده يبقى إيه كمان . .

وراح عبد المقصود يمصمص شفتيه فى تأفف . . وقد شعر أنه يحتقر جنس النسوان كله . . وأغلق باب المرحاض فى ازدراء وهو يغمغم . .

ـــ الوليه مش عارفة جالينوس .

وعاد يمصمص بشفتيه :

ـــ حد يشك فى فائدة بذر الخلنجان . .

ولوى طرف جلبابه . .

ـــ لـكن الحق مش عليها . . الحق على الولد الخنيس اللى تعلم له كام كلمه فى المدرسة . . اتهيأ له جمع علوم الأولين والآخرين .

ثم ضحك فى استخفاف . .

ـــ وييجى يقولك دراوين ومش دراوين . . والإنسان أصله قرد . ودى هى العلوم اللى بيتعلمها . . ما يعرفش إن القرد هو اللى أصله إنسان ، وأنه انسخط على الهيئة الزرية ودخل فى الصورة القردية بفعل إبليس . .

وشرع يتوضأ من جديد وهو يبتسم فى استخفاف . .

* * *

ودخل إبراهيم المهدى . . بقميص حرير وبنطلون وسيجارة على جانب فمه . . يلوح بيده بسلسلة ذهب فيها مفاتيح العربة . . دخل منطلقاً كالسهم على المطبخ حيث وقف يلتهم بطاطا مسلوقة فى صينية . .

ـــ الله حلوة أوى البطاطا دى . . أمال فين أخويا عبد المقصود . .

ونظر من جانب عينه إلى زينب . . إلى قميص نومها الذى يبدو من تحت الفستان . .

ـــ إيه ده يا مرات اخويا . . انت مش حاتبطلى سمنه بقى . . عينى عليكى باردة . . (وضحكت زينب ضحكة لها شهقة) . . انتى مش حاتبطلى أكل مفتقة . .

ـــ يا خويا مفتقة إيه . . دنا حتى عاملة ريجيم . .

ـــ كل ده وعامله ريجيم . .

وقرصها فى وركها فأجفلت وهى تصرخ فى خفوت :

— يا حوستى . . يا مصيبتى . . يادى العيبة . . إيه اللى بتعمله ده يا سى إبراهيم ..

وخرجت مهرولة وهى تلطم خديها من الكسوف ..

وانصفق باب دورة المياه . . وخرج عبد المقصود . . وكان ما يزال يدمدم ويحمحم ويجمجم . . ويجرى بأصابعه على المسبحة اليسر التى فى يده . .

— مين اللى جه يا زينب . .

— ده ابراهيم أخوك . .

وتغير وجه عبد المقصود وهو يسمع إسم أخيه .. ومشى متوجساً بينما أسرع إبراهيم من المطبخ هاشاً باشاً ليلقاه . .

— أهلا أبو المقاصد . . انت فينك يا أخى . . مش باين ليه . .

— يعنى حبان أكتر من كده .. ما أنا مرمى كل يوم فى المكتبة من الضهر للعشا . .

— مش بشوفك يعنى . .

— وحاتشوفنى ازاى .. إيه اللى جايجيبك عندى . . وإيه اللى حيزنقك تخش بعربيتك فى الحارة اللى زى شق التعبان دى . . مش قد المقام طبعاً . .

— إيه الكلام الفارغ اللى بتقوله ده .. ده احنا اخوات يا أخى . .

— الحمد لله اللى عرفت ان احنا إخوات . .

وراح يقبل يديه ظهراً لبطن . .

أحمدك يارب على نعمتك . .

— إيه ده . . أنت شاكك إن إحنا إخوات والا إيه ..

ـــ الأخوة مش كلام يا ابراهيم . انت عاوز الحق . . احنا عمرنا ما كنا إخوات . .

ـــ انت بتقول إيه ياعبد المقصود ؟ !

ـــ اللى يعيش بالحرام . . ويا كل من الحرام . . مايبقاش اخويا وانت عارف أنا قصدى إيه يا ابراهيم .

وابتسم ابراهيم فى استخفاف :

ـــ حرام إيه وحلال إيه ياراجل . . هو ده وقت الناس تتكلم فيه عن حلال وحرام . . الدنيا تغيرت يا عبد المقصود . . بص حواليك قولى مين عايش بالحلال . . انت . انت عملت إيه بالحلال بتاعك . . هى دى عيشه اللى انت عايشها . .

ـــ أنا عايش برضى الله . . ورضى الله يكفينى . .

ـــ والله يا أخى إن كان ربنا بيعلن عن رضاه بالطريقة دى . . يبقى مالوش لازمة الرضا ده . .

ـــ أعوذ بالله . . أعوذ بالله . . اللهم إنى أستغفرك وأتوب إليك . .

ـــ تتوب عن إيه بس . .

ـــ أتوب عن سماع الرجس اللى بتقوله . .

ـــ ويعنى لما يبقى ولادك مش لاقيين يا كلوا . . مايبقاش رجس . . هى الحياة فى النعمة حرام ؟ . . اللقمة النضيفة عندك حرام ؟ !

ـــ ما هى مش لقمة نضيفة يا براهيم . . إنت عارف انها مش لقمة نضيفة . . انت عارف ان العيشة اللى عايشها مش نضيفة . .

ـــ مين اللى بيقولك كده . .

ـــ ربنا هو اللى بيقول كده . .

ـــ أبداً . . ربنا راضى عنى ويسهلهالى . . وآدى انت شايف .

ـــ الله يمهل ولا يهمل . .

ـــ الشاهد ان ربنا بيهمل شأنك انت يا شيخ عبد المقصود . . شايف جلابيتك مقطعه ازاى . .

ـــ كده برضه . . الحمد لله . .

ويمسك جلبابه المقطوع ويقبله وهو يغمغم :

ـــ الحمد لله على نعمته . .

ـــ بقى ربنا مش حا يهديك ياشيخ عبد المقصود وتسيب الدروشة دى ؟ ! مش حاتفوق لنفسك وتشتغل معايا وتسيبك من أمور الجنان دى . .

ـــ أشتغل معاك . . حد الله بينى وما بينك . حد الله بينى وما بينك . .

ـــ يعنى حايجيلك إيه من الشبشبة اللى انت غرقان فيها ليل نهار . .

ـــ حد الله بينى وما بينك . . حد الله بينى وما بينك . .

ـــ عملت ايه بالأذكار والأوراد اللى بتقراها كل ليلة من عشرين سنة . .

ـــ حد الله بينى وما بينك . . اتوكل ياسيدى لحال سبيلك . . مش عاوز منك لا طيب ولا ردى . .

ـــ أنا عاوز أساعدك . .

ـــ كتر خيرك ياسيدى . . المساعد هو الله . . اتوكل لحالك وسيبنى لحالى . . خديه يازينب وريه طريق السلامة . . روح الله لا يضيمك . . روح . .

* * *

ولم ينس ابراهيم وهو خارج أن يلتهم باقى كوز البطاطا المسلوقة . . وأن يقرص زينب فى فخذها وهما واقفان على باب الشقة . .

وصرخت زينب كالعادة فى خفوت . . ياحوستى . . يامصيبتى . . يافضيحتى . . اخص عليك ياسى ابراهيم . . يا دى العيبة . .

وعبد المقصود فى الداخل . . الغرفة مغلقة عليه . . وعود من البخور الهندى يحترق برائحة نفاذة . . وهو يبسمل . .

يارحمن . . يارحيم . . ياعظيم . . ياواحد . . ياأحد . . ياصمد يا عليم . . يا حليم . . يا كريم . . يا أول . . يا آخر . . يا لطيف الألطاف . . يا جامع الأوصاف . . يا لواء الهداية . . يا كنف الحماية . .

١٨

يا غنى . . يا مغنى . .

يا غنى . . يا مغنى . .

مدد . . مدد . .

مدد يا صاحب الأمداد . .

مولد الحسين . .

مقام الحسين ليس فيه موضع لقدم .

الساحة حول المقام مزدحمة بالمريدين والمحبين من كل الأقطار والأمصار . .

عبد المقصود خرج من بيته قاصداً إلى المقام الطاهر . .

حول الطريق . . عبر الأزقة الضيقة . . وعلى أبواب الساحة التقى بحلقات الذكر . . كان يتطوح وهو يمشى مع ترانيم المنشدين . . ومع صوت الناى الشعبانى . . مدد يا حسين

إنه يحب صوت ذلك المنشد . . إن صوته جميل . . والليل جميل . . والنسيم عليل . . والسهر للصبح فى ذكر الله أجمل وأجمل .

أنا الملك المهيمن جل قدرى

عظيم الملك فاطلبنى تجدنى

يارب يامتعال . . يارب يامتعال . . حلاوتك ياشيخ عبدالرسول كمان والنبي كمان اكرمنا بصوتك اللى زى الجواهر ده . .

أنا للعبد أرحم من أخيه
ومن أبويه فاطلبنى تجدنى
تجـــدنى راحماً براً رءوفاً
بكل الخلق فاطلبنى تجدنى
إذا اللهفـــان نادانى فإنى
أقل لبيك فاطلبنى تجدنى

والرجل على باب الجامع يقول بصوته النحاسى . . « ياخواننا كل واحد يخلى باله من حاجته . . يا اخواننا كل واحد يخلى باله من مداسه . . ولاد الحرام كتير »

صوته يشبه صوت الدلالين . .

خلع عبدالمقصود مداسه ووضعه إلى جانب الرجل ودس فى يده قرشاً

صلوا على طه الرسول .

ودخل عبد المقصود الجامع

صحن الجامع مرشوش بالناس

أين يجد ذلك الرجل المبروك الذى تعود أن يلقاه كل عام فى صحن الجامع فى كل مولد . . شيخ بو يحيى العراف المغربى .

يا سبحان الله . إنه كمن يبحث عن إبرة فى زحام يوم الحشر . .

أين شيخ بو يحيى فى هذا الجمع الغفير من الخليقة . . إن الواحد ليتلفت حوله فلا يبصر لصحن الجامع أرضاً من كثرة ما افترشها من البشر . . ياقوة الله . . مدد ياحسين . . كل هؤلاء الخلق .

ألف واحد يتكلمون فى كل مكان من الجامع . تسمعهم يتكلمون كلهم فى وقت واحد .



ــ الحمد لله ونعم بالله والملك له . . حى . . ستار . . ستار

ــ بعوده الأيام يا اخواننا

ــ حسنه لله يا مسلمين لاجل خاطر الحسين

ــ سبحانه يمهل العاصى حتى يتوب فاذا تاب وأصلح غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . حليم . . غفار . .

ــ اللهم إنى تبت ورجعت إليك يارب

ــ عقبال زيارة النبي . . عقبال جمعتنا عند الرسول .

ــ بالشفا يا ست بالشفا . . . اتبخرى بيه تلات مرات والتكال على الله

ــ شيخ بو يحي . . شيخ بو يحى .

لم يكن عبد المقصود يلتق حيثما ذهب إلا بكتل بشرية . . وبحر متلاطم من الرؤوس .

ــ الحمد لله الذى حلل الحلال وحرم الحرام وحذر من الظلم ونهى عن الإثم ووعد المتقين بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

ــ عنبر ومستكه من عند النبي . . من عند الرسول .

ــ الحمد لله الذى جمع الأنام على المحبة . . ولم شملهم على الأيمان .

هذا صوته والله . .

وأصاخ عبد المقصود بأذنه وحملق بعينيه إلى ناحية الركن . .

هذا صوت صاحبنا المغربى . . وهذا هو والله بلحمه ودمه . . شيخ بو يحي . . بلغ السبعين وما زال ريانا تتدفق حمرة الحياة من خديه . . ياسبحان الله . . هو هناك فى الركن حيث تعود أن يجلس كل عام بين صحبته . . وجهه عليه النور .

كان عبد المقصود يخوض فى بحر من الرؤوس . . ويزيح بكتفه الأخطبوط البشرى الذى يسد عليه الطريق فى كل شبر .

ـــ إياكم والحسد يا إخوانى فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

ـــ مصاحف . . تعاويذ . . أحجبة . . سبح . .

ـــ صلوا على طه الهادى . .

ـــ تواب رحيم قديم قدوس . . حى لا يموت . .

ـــ الله . . الله . . الله . . الله .

وكان عبد المقصود قد خلع نفسه من الزحام ووصل أخيراً لى الركن حيث يجلس صاحبه بين حلقة مريديه ليندفع وسط الحلقة ماداً ذراعيه . .

أهلا شيخ بو يحي . . حمد الله بالسلامة . . بعودة الأيام .

وقام الشيخ وقد تهلل وجهه . .

وتعانق الاثنان فى حرارة . .

كيف حالك عبد المقصود أخى . . أوحشتنا والله . . اجلس . .

عافاك الله . .

وجلس عبد المقصود وهو ما زال ينظر إلى شيخه مبهوراً .

وإلى جانب الشيخ تتراص فناجين القهوة . . والبراد . . ووابور السبرتو . .

ـــ يا سلام على قهوتك يا شيخ بو يحيي . .

وصب له الشيخ فنجاناً مضبوطاً له « وش »

لا أحد فى الدنيا يستطيع أن يصب القهوة كما يصبها الشيخ بو يحيي . . ورائحة قهوته . . . . يا سلام . . البن اليمنى الأصلى . . والحبهان . والطعم المزز اللى ينعش المخ .

ـــ فين أيامك ياشيخ بو يحيي . . بعوده الأيام . . والسنة الجاية تكون جمعتنا فى الحرمين . .

الفاتحة ياإخوان . . اقرءوا معانا الفاتحة إن ربنا يجمعنا فى حمى الرسول السنة الجاية . . بسم الله الرحمن الرحيم . . الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم . .

ورفع جميعهم الأيدى يقرؤون و يمسحون على وجوههم و يغمغمون . آمين . . طويلة منغمة ممطوطة والشيخ بو يحيي يقرقر كالقط العجوز على سبحته مسبل الجفنين وأفاق الشيخ من تسبيحته . . . . ليربت على كتف عبد المقصود ويقول له . .

ـــ إن شاء الله يكون الأنجال بخير وعافيه . .

ـــ والله ابنى الصغير دايماً ربنا فاكره .. طول السنة دى كان عيان بيشكى من صداع مزمن .. مش عارفين له حل .

وأغفى بو يحي من جديد وهو يتمتم بشفتيه.. بينما مد بقية المشايخ أعناقهم .. وكل واحد يصف وصفة مجربة .

شيخ ضرير جالس فى الركن وصف غسل الرأس بماء القرع كل يوم بعد حلقها وتعاطى شراب الرمان على الفطور .. وشيخ آخر نصح بورق الحرمل يدق مع القرفة والقرنفل والسنبل الهندى والأطرون ويمزج بالعسل وتؤخذ منه ملعقة صغيرة قبل النوم .. وآخر قال إنه جرب دهان الشب الأبيض والملح والحناء وغسول الزعفران والخل .. ورجل فى جبة وكاكولة جليل وقور روى حديثاً مأثوراً عن النبى أنه قال .. عليكم بالحبة السوداء فإنها تحل النفخ وتقتل الديدان وترفع الزكام وتقطع البؤلول وتدر البول وتشفى الصداع . .

ورجل آخر وصف حجاباً مجرباً يوضع على الدماغ ويكتب فيه باسم الله الرفيع المكان .. باسم الله الذى لا يشغله شأن.. نفذت حجته وظهر أمره ، وتفرق أعداؤه وشعشعت أنواره .. باسم الله اخرج أيها الوجع من رأس حامل كتابى فلان بن فلان .

وكان الجدال على أشده والشيخ بو يحي مستغرقاً فى غفوته مايزال يتمتم بشفتيه ويقرأ طول الوقت .

وحينما هدأت الأصوات .. وكفت الأذرع عن التلويح . . اعتدل هو فى جلسته .. وأمسك بيدى عبد المقصود ليقول فى هدوء وثقة :

ـــ الحمد لله جاء الأمر . .

ـــ ربنا يطمنك يا سيدنا . .

ـــ الحمد لله جاء الأمر . . وحايشق ابنك .. لا تحمل هم .

وقام عبد المقصود إلى الشيخ بو يحي واحتضنه وقبله فى رأسه . . ولثم يديه . .

ربنا يخليك لنا يا سيدنا . .

كانت صحبة الإخوان ما زالت معقودة الشمل فى صحن الجامع حول شيخ بو يحيى .. ومولد الحسين فى ليلته الكبيرة .. وتباشير الفجر تطلع ولا أحد ينام .. كل واحد يذكر الله على طريقته .. والناس تشترى وتبيع وتمرح وتسهر وتعيش الليل كأنه نهار .

وعبد المقصود جالس كله آذان صاغية إلى حديث أحد الإخوان من أتباع الرفاعية يتحدث عن كرامات سيدى أحمد الرفاعى .. ويتلو من كتاب كبير أصفر فى يده وهو يتمايل طرباً ..

كان سيدنا مضرب الأمثال فى تحمل الأذى ومن مكارم أخلاقه ماقاله الشنوانى فى حاشيته عن مختصر أبى جمرة أن كلباً حصل له جذام فاستقذرته نفوس أهل بلده وصار كل واحد يطرده عن بابه فأخذه سيدى أحمد الرفاعى وخرج به إلى البرية وضرب عليه مظلة وصار يأكل وإياه ويسقيه ويدهنه حتى عافاه الله من الجذام بعد أربعين يوماً فسخن له ماء وغسله ودخل به البلد فقيل له أتعتنى بهذا الكلب هذا الاعتناء كله فقال نعم خفت أن يؤاخذنى الله يوم القيامة ويقول أما عندك رحمة بهذا الكلب .. أما تخشى أن أبتليك بما ابتليت به هذا الكلب ..

وكان رضى الله عنه كثيراً ما يتجلى عليه الحق بالعظمة فيذوب حتى يصير بقعة ماء ثم تدركه الرحمة فيجمد شيئاً فشيئاً حتى يرد إلى بدنه كالمعتاد ويقول لجماعته لولا لطف الله ما عدت إليكم . .

وفى طبقات الشيخ عبد الوهاب السبكى أن هرة نامت على كم سيدى أحمد الرفاعى وجاء وقت الصلاة فقص كمه ولم يزعجها . وعاد من الصلاة فوجدها قد قامت فوصـــل الكم بالثوب وخاطه وقال ما تغير . وكان رضى الله عنه يقول . سلكت كل طريق فما رأيت أسهل ولا أقرب من الافتقار والذل والانكسار . . ومن كراماته أنه كان إذا صعد الكرسى للقراءة سمع كلامه البعيد كالقريب حتى أهل القرى الذين حول بلده كانوا يسمعونه حتى الصم كانوا يسمعونه . وروى عنه أنه إذا سأله سائل أن يكتب له تعويذة يأخذ الورقة ويكتب عليها من غير مداد . . وحدث أن اثنين من أصحابه تحابا فى الله فخرجا بصحراء فتمنى أحدهما كتاب عتق من النار ينزل من السماء فسقطت منه ورقة بيضاء فلم يريا فيها كتابة فأتيا إليه يخبرانه بالقصة فنظر إليها ثم سجد لله تعالى وقال الحمد لله الذى أرانى عتق أصحابى من النار فى الدنيا قبل الآخرة فقيل له هذه بيضاء .. فقال أى أولادى يد القدرة لا تكتب بسواد .. هذه مكتوبة بالنور .

وتململ أفندى كان يجلس قريباً وفى يده سبحة وقال وهو يتنحنح:

ـــ ياسيدى هذا كلام مدخول . وروايات مختلقة وافتراءات على الناس الصالحين . . وهل يعقل أن يتكلم رجل فيسمعه الصم . . وهل يعقل أن ...

والتوت الأعناق ناحية الأفندى الذى أقحم نفسه فى الحديث



بلا استئذان .. وتعالت الاستغفارات .. والمصمصة والدمدمة والحمحمة ..
ولا حول ولا قوة إلا بالله .. وأستغفر ولا إله إلا الله ..

ورد الشيخ فى صوت غاضب

— وهل يعقل أن يتكلم الحديد .. ومع ذلك فها هو يتكلم فى المذياع والحاكى وأنت تعقله وتصدقه .. وهذا أنت ترى صور الناس بأشخاصهم تتحرك وتتكلم فى التليفزيون وتنتقل عبر الهواء .. وتعقل كل هذا وتصدقه .. ثم لا تعقل المشيئة .. لا حول ولا قوة إلا بالله .

— والله يا أخى أنا أرى صور التليفزيون بعينى .. ولكن أوراق العتق هذه التى تنزل من السماء .. أنا لم أرها ..

— وهل رأيت الكهرباء فى الأسلاك .. أنت لم ترها .. ولا أحد رآها ، ومع ذلك تقول بأن هناك كهرباء ، وتؤمن بأن هناك كهرباء ، ويؤمن كل عاقل بأن هناك كهرباء .. ولا أحد رآها ولا أحد يعرف لها كيفاً ولا أحد يعرف لها ماهية .. ولكن الظواهر كلها تدل على أن قوة تسرى فى الأسلاك .. كذلك قوة الله وإرادته ومشيئته ، لا قبل لأحد برؤيتها ولكن الظواهر كلها تدل عليها وتشير إليها ..

كان المشايخ يهتزون طرباً وهم يستمعون إلى الشيخ بو يحى وهو يصول ويجول ويقرع الحجة بالحجة .. وكانوا ينظرون إلى الأفندى الذى بدأ عليه الاستخذاء ..

— القدرة ياسيدى القدرة .. كل شىء يتحدث حولك بالقدرة .. أتشك فى قدرة الله ..

ـ أنا لا أشك فى قدرة الله . . ولـكنى أشك فى قدرة المشايخ من عباد الله .

ـ يضع سره فى أضعف خلقه . وهل أحطت بقدرة الله ومشيئته حتى تعرف من يخصه بنعمته ومن لا يخصه .. هناك ناس مفضلون عند الله . . مقربون إليه مباركون عنده مكشوف عنهم الحجاب . . والهزء بهؤلاء الناس ليس من شيم العلماء ..

ـ وهل هذه الكتب الصفراء من العلم ؟

ـ العلم عند الله .. وما هذه الكتب إلا للتبرك .. وصاحبى يقرأ هذه الكتب فيأتنس ويسكن قلبه وتهدأ نفسه ويجد السلوى . . لا تحاج فيما لا تعلم .. وهل كل ما نراه فى الدنيا معقول ..

وصرخ الشيخ :

ـ وهل الموت معقول :

أن تموت وتصبح نسياً منسياً . أهو أمر معقول . . وأنت ملء السمع والبصر والفؤاد . .

وسكت الأفندى ولم يجد ما يقوله . . وراح يتنقل بعينيه بين وجوه المشايخ كأنه ينقلها بين وجوه مجانين .

ـ عنبر من مكة من عند الرسول .

ـ صلوا على طه الهادى . .

ـ السعيد فى الخلق .. من يصلى على الحبيب النبى .

وكان صاحبنا قد عاد إلى كتابه الأصفر يتلو فيه سيرة الرفاعى . . وهو ينظر بجانب عينه إلى الأفندى الذى استخذى وسكت . .

« وفى طبقات الشعرانى أن سيدى أحمد الرفاعى كان يبدأ من لقيه بالسلام حتى الإنعام . . وكان إذا رأى خنزيراً يقول له أنعم صباحاً فسألوه فى ذلك .. فقال أعود نفسى الجميل .. وكان إذا سمع بمريض فى قرية ولو على بعد يمضى إليه يعوده وكان ينتظر العميان فى الطريق ليقودهم وكان إذا رأى شيخاً كبيراً يذهب إلى أهل حارته ويوصيهم عليه ويقول قال النبى من أكرم ذا شيبة سخر الله له من يكرمه عند شيبته .. وكان يقول لا يحدث للعبد صفاء الصدر حتى لا يبقى فيه شىء من الخبث لا لعدو ولا لصديق ولا لأحد من خلق الله وهناك تستأنس به الوحوش فى غيوضها والطيور فى أوكارها . . ويتضح له سر الحاء والميم . . قال له واحد من تلامذته . . يا سيدى أنت القطب . . فقال نزه شيخك عن القطبية . . فقال له أنت الغوث فقال نزه شيخك عن الغوثية .. قال الشعرانى وفى هذا دليل على أنه تعدى المقامات والأطوار لأن القطبية والغوثية مقام معلوم ، ومن كان مع الله وبالله فهو فوق كل مقام .

قال يعقوب الخادم رضى الله عنه . لما مرض سيدى أحمد مرض الموت . . قلت له ماذا بك يا سيدى . . قال جرت أمور اشتريناها بالأرواح . . وذلك انه أقبل على الخلق بلاء عظيم . . فتحملته عنهم وشريته بما بقى من عمرى فباعنى .. وكان يمرغ وجهه وشيبته فى التراب ويبكى . ويقول . . العفو . . العفو . . اللهم اجعلنى سقف البلاء عن هؤلاء الخلق .

وكان المشايخ يدمدمون فى تأثر . . لا حول ولا قوة إلا بالله . . لا حول ولا قوة إلا بالله . .

وأحد المشايخ يقول فى رجاء . . اقرأ لنا والله سيرة سيدنا عبد القادر .

فيتصايح آخرون . . أى والله سيرة سيدنا عبد القادر . . وسيرة سيدى ابراهيم الدسوقى . . ما أحلى سيرة الأحباب . . ما أحلى سيرة الأحباب .

وصاحبنا يقلب الصفحات عند سيدى عبد القادر الجيلى . . ويتلو فى خشوع « هو أبو صالح عبد القادر بن موسى ولد سنة سبعين وأربعمائة . .

كان رضى الله عنه يلبس لباس العلماء ويتطيلس ويركب البغلة ويتكلم على كرسى عال وربما خطا فى الهواء خطوات على رءوس الناس ثم يرجع إلى الكرسى .. وكان رضى الله عنه يقول قاسيت الأهوال فى بدايتى فما تركت هولا إلا ركبته وكان لباسى جبة صوف وعلى رأسى خريقة وكنت أمشى حافياً فى الشوك وغيره وكنت أقتات بخرنوب الشوك وقامة البقل وورق الخس من شاطىء النهر ولم أزل آخذ نفسى بالمجاهدات حتى طرقنى من الله طارق فهمت على وجهى وكنت أتظاهر بالتخارس والجنون وحملت إلى البيمارستان . . وجرت على أحوال الموت وجاءوا لى بالكفن والغاسل وحملونى على المغسل ليغسلونى ثم سرى عنى وقمت . .

وحكت أمه كرمها الله قالت لما وضعت ولدى عبد القادر رفض أن

يلقم ثديى طيلة النهار ثم أفتى المفتى فى ذلك اليوم أن هلال رمضان قد ظهر .. وأن ذلك اليوم كان الأول من رمضان .. واشتهر من ذلك اليوم نبأ ذلك الوليد الذى رفض أن يأتى ثديه فى رمضان ..

حى .. حى .. حى ..

إيقاعات الذكر .. وصوت الناى .. ورائحة البخور ..

وجماعة من المنشدين يقطعون القراءة بترتيلهم العذب

هذا التقى النقى الطاهر العلم

ينشق نور الهدى من نور غرته

كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم

الله فضله قدماً وشرفه

طابت عناصره والخلق والشيم

حى .. حى .. حى .. حى ..

ويخفت الصوت مبتعداً رويداً رويداً خارج الجامع .

وصاحبنا يقرأ فى الصفحات الصفراء :

« قال المناوى فى طبقاته عن سيدى ابراهيم الدسوقى أنه كان شيخ الطائفة البرهامية صاحب المحاضرات القدسية والعلوم اللدنية والأسرار العرفانية . . وكان أحد الأئمة الذين أظهر الله لهم المغيبات وخرق لهم العادات . . وكان يتكلم رضى الله عنه بجميع اللغات من عربية إلى سريانية إلى غيرها . .

وفى طبقات الشعرانى أن الدنيا جعلت فى يده كخاتم . . وأنه فك

طلاسم السبع المثانى . . وقال رضى الله عنه وليت القطبية فرأيت المشرقين والمغربين وما تحت التخوم . . ومن كراماته أن سبعة من القضاة جاءوا يمتحنونه فلما وصلت مركبهم إلى البر بناحية دسوق أرسل النقيب لهم فدفعهم فوجدوا أنفسهم خلف جبل قاف . . فأقاموا سنة يأكلون من حشيش الأرض حتى تغيرت أجسادهم وخلقت ثيابهم ثم تذكروا ما وقعوا فيه فتابوا فأرسل لهم النقيب فدفعهم فوجدوا أنفسهم على ساحل دسوق ومسح الله من قلوبهم تلك الأسئلة كلها واعترفوا بما كانوا قد جاءوا لأجله . .

وكرامة ثانية ذكرها المناوى فى طبقاته قال : خطف تمساح صبياً فأتته أمه مذعورة فأرسل نقيبه فنادى بشاطىء البحر . . معاشر التماسيح من ابتلع صبياً فليطلع به . . فطلع التمساح ومشى معه إلى الشيخ فأمره بأن يلفظ بالصبى فلفظه حياً .

وكان المشايخ يهمهمون . . ياسبحان الله . . ياسبحان الله . ويبدو أن الأفندى كان يستمع لأنه أخذ يضرب كفاً بكف ويبتسم ويلوح بيديه . والشيخ بو يحيى يقرع مقرعته فى حسرة .

الحق باطن . . الحق باطن . . ولا يأخذ بظاهر الألفاظ إلا من عميت بصائرهم .

ما التمساح بتمساح . ولا الصبى بصبى .

ماهى إلا إشارات .

كل ماحولنا اشارات .

نحن نعيش فى عالم الإشارات . لاحقائق هناك .

الحق باطن .. الحق باطن ..

الله الحق لاسواه ولا عين تراه .

وكان المؤذن يؤذن بالفجر .. وشيخ بو يحي يقـــوم وهو مازال يهمهم .

الله الحق لاسواه ولا عين تراه .

وكان يمشى إلى القبلة فى خطوة مرتجفة .. وهو مازال يهمهم ..

‡ الله الحق لا سواه ولا عين تراه .

وحينما بلغ القبلة كان أحد المشايخ يجرى خلفه وهو يصيح :

شيخ بو يحي . . شيخ يحي .

وتوقف شيخ بو يحي والتفت نحوه فى بطء . . بينما قال الرجل وهو يتهته من الرعب :

ـــ شيخ بو يحي .. الأفندى .. الأفندى !! ..

وراح يشير ناحية الأفندى . .

فقال شيخ بو يحي . .

ـــ أي أفندى ؟ . .

ـــ الأفندى ..

وكانت حلقة كبيرة قد بدأت تلتف حول الأفندى . . وكان أحدهم يقول بصوت عال :

ـــ الأفندى مات . .

ــ اعتدل فى جلسته هكذا فطلعت روحه . .

ــ مات بالسكتة . .

ــ لا إله إلا الله . .

وكان شيخ بو يحي يتمتم فى بطء :

ــ لاحول ولا قوة إلا بالله . مات قبل أن يصلى الفجر . .

لا حول ولا قوة إلا بالله .

مات قبل أن يعقل ما ليس يعقل . .

اللهم . . هل سمع الصم . .

اللهم . . هل سمع الصم . .

وأسلم نفسه للقبلة فى خشوع ، وأخذ يردد بصوت ضارع :

اللهم غفرانك . .

اللهم عفوك . .

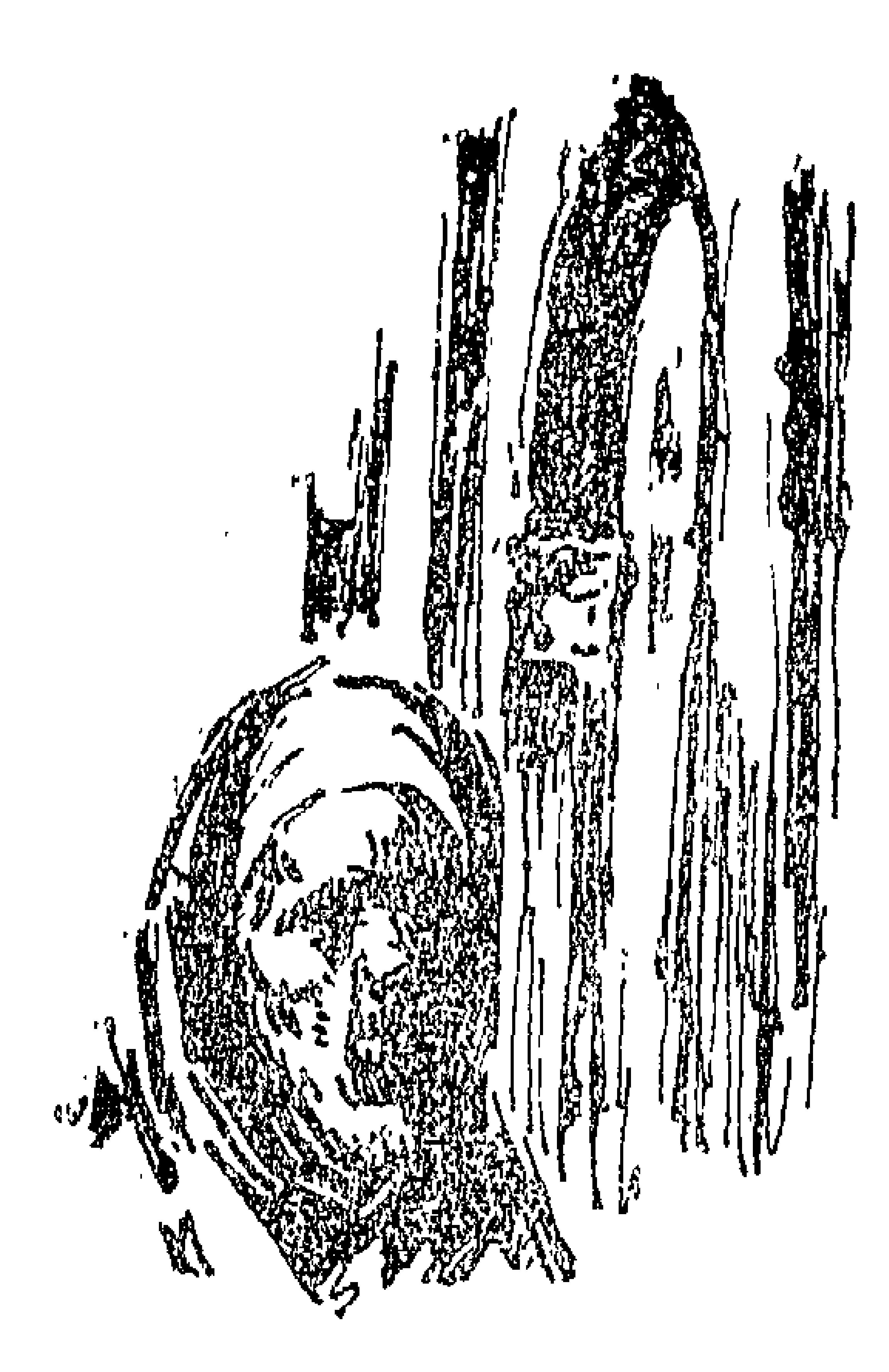
اللهم . . النجاة . . النجاة . .

الوقت عشاء .. فى منزل عبد المقصود ..

وكعادة عبد المقصود كل سنة فى مولد الحسين يدعو الشيخ بو يحي على مائدة العشاء الشهية من الفت والكوارع بالثوم والخل التى تعدها زينب على طريقتها .

والبيت السعيد يملؤه الضيوف .

والأولاد يدخلون ويخرجون ليمسح الشيخ على رءوسهم لتحل بهم البركة .



وصوت الشيخ يعلو جهيراً أمام حنفية الوضوء يردد فى خشوع :

« اللهم كاشف الغم فارج الهم مجيب دعوة المضطرين رحمن الدنيا ورحيمها »

« اللهم فارحمنى برحمة تغنينى بها عمن سواك »

« اللهم رضوانك »

« اللهم عفوك »

ـ ادعى لنا والنبي يا سيدنا الشيخ معاك

ـ اللهم المغفرة لنا ولأمة العرب أجمعين

ـ ادعى لمحمد ان ربنا يطرح فيه البركة

ويخرج محمد راقصاً من المطبخ وفى يده قطعة من لحم الرأس يهبر فيها هبراً .

ومن الواضح أنه قد مضت عليه ربما شهور لم يذق فيها طعم اللحم . . وأن اللحم لا يدخل البيت إلا نادراً . .

ولا شك أن عبد المقصود لم يشتر الرأس العجالى . . ولم يدفع فيها مليما .!. وإنما هو الرزق الذى يأتى على قدوم الشيخ ويغمر البيت على مولد الحسين .

أهل الخير يدقون الباب.

والجيران الكرام يذكرون بعضهم بعضاً بالمعروف .

والأقارب من أقصى الصعيد يبعثون بالتمر والعجوة والفول السودانى .

ويمتلىء البيت بالرزق .

ومدد يا حسين . . وبعوده الأيام .

وأحلى الأيام هى الأيام التى يأتى فيها شيخ بو يحيى . .

وأحلى الليالى هى التى يبيتها فى البيت . . ويقضيها عبد المقصود ساهراً ينعم بحضرته ونورانيته . .

واحلى الساعات هى ساعات الوحدة حينما ينام جميع أهل البيت ولا يبقى إلا هو والشيخ يتبادلان ذلك الحديث الشجى . . ويتساران بتلك النجوى الربانية .

وتلك الليلة كان عبد المقصود قد صمم أن يبوح بسره للشيخ بو يحيى ويكاشفه بهذه الأشياء التى شغلت باله فى الأيام الأخيرة . . تلك الكتب التى يقرؤها عن تحضير الجان وجلب الأرواح السفلية ومناجاة خدام الأرض . .

كم من مرة هم بأن يطلعه ثم خانته شجاعته . . فهو يعلم أن هذه الأشياء حرام . . وأن الشيخ يكره الحرام ومن يأتى الحرام . . ومن يطلب المعونة من غير الله .

وكم ود لو أنه سأله عن أسرار الحروف . . تلك الأشياء التى طالما قرأها واستعصت عليه . .

وهو يعرف أن الشيخ من أهل العلم .. وأنه من الأبرار الأخيار الواصلين الذين أودعهم الله أسراره .

وفوق كل الأسرار فى نظر عبد المقصود .. أسرار الحروف ..

سر الكاف .. وسر النون .

سر .. كن فيكون ..

السر المحفوظ فى اللوح فى سدرة المنتهى .

ولكنه كان يعود فيتخاذل .

كيف يجترىء فيطلب لنفسه هذا الشرف الرفيع .

وبماذا يتعلل للشيخ ..

هل يقول له إنه يريد أن يحيل التراب إلى ذهب ..

هل يقول له إنه صار عبداً للعرض الزائل الفانى .. وأن الحاجة أذلته .. واللقمة أضنته ..

إنه فقير كثير العيال .. والفقر أوهن منه العظم .. والله يعلم .. وكل من له عينان يرى ..

وها هو الشيخ يفتح له الفنجان ليقرأ له الطالع كعادته كل سنة .. ولعله يرى فى الفنجان ما ليس يراه أحد .

وكان الشيخ يقلب الفنجان وهو يبتسم متمتما ..

ــ كذب المنجمون ولو صدقوا .

ــ كذب كل الناس إلا شيخ بو يحيى .. والله لو قلت إن

الشمس تطلع غداً من الغرب لطلعت من الغرب من أجل نور عينيك .

ـــ لا حول ولا قوة إلا بالله هذا كفر يا عبد المقصود .

ـــ ماشاء الله .. محبتك لاتكون كفراً أبداً .

ـــ أحبنى فى الله ولا تحبنى لنفسى .. هذا أكرم .

وكان الشيخ يقلب الفنجان فى يده وقد اختفت ابتسامته وراح يغمغم ..

ـــ ماذا تريد أن تفعل بالذهب يا عبد المقصود .. ألا تعلم أن من عنده ذهب عقله ذهب .

واصفر وجه عبد المقصود وأخذ يد الشيخ وقبلها .

ومال عليه الشيخ .. يمسح على رأسه فى حنان .

ـــ ماذا فعلت بنفسك ياولدى ..

وما حاجة الهادى المهدى إلى الذهب .. وما حاجة ابن السماء إلى تراب الأرض .

الذهب عندك منه الكثير .. الذهب بين يديك . لماذا تفتقر وتذل وتمد يديك بالسؤال لمن هم أولى منك بالسؤال .

ياولدى أحباب الله لا يقصدون أحداً . . وإنما هم المقصودون دائماً وكان الشيخ يمسح على رأسه ويربت على كتفيه ويقرأ كلاما كثيراً ويتعوذ من الشيطان ثم مد يده إلى المائدة وأمسك بقطعة غظم .

ـــ أرأيت . . نحن لانشبع أبداً . . نحن نأكل الجوع ونشرب.

الظمأ ولا فائدة .. نحن جوعانون أبداً .. نحن كالغرابيل المخروقة.
لا شيء يبقى فى داخلنا .. بطوننا مخروقة .. نفوسنا مخروقة مفتوحة.
على الخواء .. على العدم .. العدم ..

وراح يخبط على صدره

العدم هنا . .

وظل يخبط على صدره حتى ارتج عليه .. وراح يلهث ..

ثم قال :

أرأيت .. كيف تدوى صدورنا كطبول جوفاء .

كل هذا خواء .. عدم .. كيف تملأ الخواء .

الذهب لا يملأ الخواء .

لاشيء يملأ « اللاشيء » .

لاشيء سوى كلمة الحق .

وكان صوته قد ضعف وتهدج حتى أصبح كالبكاء .

ــ لا أحد فى هذه الدنيا يعرف شيئاً ..

لا أحد فى هذه الدنيا يملك شيئاً .

كلنا فقراء نخرج منها عرايا .

ها نذا قد قصدت بابك . فلم أجد عندك سوى العظم . . العظم ..
العظم .. وراح يجمع العظم من المائدة ويضعه فى جيوبه .

العظم .. العظم .. العظم.

وكان قد ملأ جيوبه بالعظم . . وخرج من الباب إلى الشارع لا يلوى على شيء .

ووقف عبدالمقصود مذهولا . . تدور عيناه فى محجريهما كالمجنون لايعرف ماذا يفعل . .

وكان شيخ بو يحيى قد ابتلعه ظلام الطريق .

وخرج عبد المقصود يضرب فى الظلمات باحثاً عنه . . ولكنه لم يعثر له على أثر . .

فى تلك الليلة رجع عبد المقصود إلى بيته فى الفجر ورأسه يدور وحينما تمدد فى فراشه . . كانت كلمات الشيخ ترقص فى رأسه كالأشباح وعادت الكلمات .. كلمة .. كلمة .. تطن فى أذنيه .

ألا تعلم أن من عنده ذهب عقله ذهب .

وما حاجة الهادى المهدى إلى الذهب وما حاجة ابن السماء إلى تراب الأرض . .

هل يعنى ما هو أكثر من مصادفة الإسم .. أنه ابن السماء الهادى المهدى .. ! !

لذهب عندك كثير .. الذهب بين يديك .. أحباب الله لايقصدون أحداً .. وإنما هم المقصودون .. نه ليس عبد المقصود .. ولكنه « المقصود » .. الهادى المهدى .. ابن السماء ..

الذهب بين يديه .

أتكون إشارة من إشارات الشيخ إلى طالع من طوالع المستقبل..

أيكون مقدراً له فى علم الغيب أن تختاره العناية لرسالة الهادى المهدى .. يا إلهى ..

هذا جنون .. جنون .

ولكنها كلمات الشيخ بظاهرها وباطنها تشير إلى ذلك .

والعظم .. أنه لم يجد عندى سوى عظم .

ما أنا إلا فقير .

جئت أقصد بابك فلم أجد عندك سوى العظم ..

ها نحن أولاء لا نشبع .. نأكل الجوع ونشرب الظمأ ونملأ بطوننا وهى أبداً خواء ..

وهل يمتلىء الخواء .. وهل يملأ الذهب الأيد الخواء والبطون الخواء .. وهل يوجد الشىء الذى يملأ الخواء « اللاشىء » .

هذه كلمات كالألغاز .

وإشارات كالطلاسم .

ماذا يقصد الشيخ بالخواء .

* * *

ولم ينم عبد المقصود تلك الليلة وكان فى الدقائق القليلة التى يغفو فيها .. يخيل له أنه يركب السحاب الأبيض .. ويطير .. ويطير .

انفض المولد .. وذهب الشيخ إلى حاله .. لم يعثر له عبد المقصود على أثر ..

أغلب الظن أنه عاد إلى بلاده .. هكذا يفعل كل عام .. يظهر فجأة .. ويغطس فجأة كأنما ابتلعته الأرض ، ويترك فى قلوب عارفيه ومحبيه تلك الحيرة الغامضة وذلك الشوق العذب ..

وأكثر الناس قلقاً وأكثر الناس شوقاً كان عبد المقصود ..

لكأنما قطعت له ذراع أو بترت له ساق .. أو تاه له ابن عزيز .. فهو أكثر من مجرد صديق أو إنسان بالنسبة لعبد المقصود .. إنه باب الخلاص .. والنجاة ..

باب الهدى .. والفتوح .

والدنيا الآن ظلام بعد أن مضى الشيخ ..

البيت ظلام .. والطريق ظلام .

ونفسه فى ظلام .. فى قلق .. وحيرة .. وتشتت .. وتساؤل .. كلمات الشيخ ما زالت تروح وتجىء فى رأسه . .

ماذا كان يعنى بهذه الكلمات التى قالها فى لقائه الأخير ..

إنه لم يعد يجرؤ على التفكير فيها ..

ومع ذلك فهى تغوص فى نفسه .. فى أغوار نفسه .. وتبعث فيه ذهولا دائماً وبلبلة ..

وهو يتعذب ..

كل شىء فى هذه الدنيا يعذبه .

أولاده يعذبونه ..

امرأته تعذبه ..

أخوه يعذبه ..

نفسه تعذبه ..

لا مكان للراحة فى هذه الدنيا .. ولا فى نفسه .

هل هو افتقار إلى الإيمان ..

إن المؤمنين يكافئهم الله بسكينة القلب .. فما باله لا يعرف هذه السكينة أبداً ..

هل هى صلوات خاوية تلك التى يؤديها .. صلوات غير مقبولة .. وابتهالات مغرضة لا محبة فيها ولا صفاء ؟

إن الشيخ قصد إلى بابه فلم يجد عنده سوى العظم .. لم يجد عنده ما يشبعه .. وعاد جائعاً كما دخل ..

لا شيء فى البيت سوى الجوع . . جوع يأكل جوعاً .

امرأته خارجة من الحمام تتجمل وتتحفف وتتكحل وتتطيب وتتخطر . . وتناديه بصوت فيه غنج « يا عبده » .

ماذا تريد به . .

أى لوعة تسببها له هذه المرأة .

أى لوعة . .

إنها تحرقه فى جوفه . .

ملعون ذلك العطار . . وملعونة هذه التحويجة التى أدمن على تعاطيها كل ليلة . . « جوزة الطيب » تنبه الأعصاب وتعيد الشباب . . « وأوراق الداتوره » تعدل المزاج وبذور « أبو النوم » تقوى الباه . . « والشطة السودانية » و « زيت الحلبة » . . و « سيقان الخردل » . . و « الحشيشة الشيطانية » و « اللبان الذكر » . . لها ألف أثر وأثر . . هكذا يقول العطار المجرب الشيخ معروف . .

وهو كل يوم يقول له . . يا شيخ معروف خد بالك من التحويجة .
وهو يأخذ كل ليلة قرطاساً . .

والآن يأخذ قرطاسين . .

ملعون ذلك العطار . .

لم تعد عطارته تجدى . .

« يا عبده » . .

امرأته تنادى بصوت فيه غنج

ماذا تريد من عبده ؟

وماذا يستطيع أن يفعله العطار ؟

وصوت امرأته يحرقه فى جوفه .

والصلوات التى يركعها غير مقبولة . . لا نورانية فيها ولا صفاء .

النسوان أحابيل الشيطان . .

كل شىء ظلام . .

نفسه ظلام فى ظلام .

الأولاد المخابيل لا تنتهى لهم مطالب . . وعلى رأسهم كبيرهم ذلك الإبليس النكد الملحد . . فتحى . .

العلم . . العلم . . لم يعد فى العالم مكان لهذيان المتصوفين . . ما يقوله المشايخ هبل فى هبل . . هل يستطيع أولياء الله أن يصنعوا قنبلة ذرية . . ببركاتهم ؟ ! !

المجنون يمزق لى كتبى . .

يقول عن أبيه أنه مخرف . .

يقول عنى أنى مخرف . .

الولد العاق . . ماذا يفهم عن العلم . .

لم تعد هناك كرامة لعلم ولا لعلماء . .

كل واحد يقول عن نفسه أنه عالم . .

الولد فى المدرسة الثانوية يقول عن نفسه أنه عالم ويمزق الكتب ويسخر من أصحاب الفضل . .

يارب .. هل هذا يرضيك ..

« يا عبده » .. الصوت الناعم الأملس الثعبانى يتسلل تحت الثياب . الحية الرقطاء طردت آدم من الجنة ..

ظلت تغريه بصوتها الناعم الثعبانى حتى عصى ربه وأكل من الشجرة وعبد المقصود يأكل كل يوم من الشجرة .. وطعامه عظم عظم .

كلب عضاض يأكل العظم ..

يارب .. كيف السبيل إلى الخلاص ..

كيف السبيل لى النجاة ..

كيف السبيل إلى الهداية ..

أين أنت يا شيخ بو يحي ..

لماذا تركتنى وحدى . .

إبراهيم يقول لى اشترك معى وأنا أجد لك طريقاً . .

وابراهيم المثقف المتعلم ابن الجامعة المهندس الزراعى الذى بعثت به العناية إلى الفلاحين يغش الفلاحين ويبيع الكيماوى فى السوق السوداء ويتاجر فى مواد الرش . . ويقول إنه وجد لنفسه طريقاً ليأكل اللقمة النظيفة ويريدنى أن أشترك معه فى الكسب الحرام . .

وابراهيم المهدى هو أخى . . وحبيبى . . والشقيق الصغير الذى ربيته .. وضحيت بمستقبلى ليتعلم ويدخل الجامعة .. ويخرج منها مثقفاً عالى المقام يشرفنا ويشرف بلده ..

وابراهيم له عربة ..

وقصانه حرير ..

وسلسلة مفاتيحه ذهب .

وهو يخجل منى .. لأن ثيابى مرقعة وليست قد المقام ..

ويقول إن صلاتى لا تنفع ..

وهو على حق ..

فأنا لا أصلى ..

الله يرحمنا جميعاً ..

لا حول ولا قوة إلا بالله ..

لا حول ولا قوة إلا بالله ..

كيف الطريق إلى النجاة ياسيدنا الشيخ ..

سيدنا الشيخ يقول أن الهادى المهدى الذى يجرى الذهب بين يديه لا يجب أن يقصد أحداً .. ولا يصح أن يرجو عبداً .. فهو المقصود الذى يقصده الكل ..

وهو يقول لى ..

الذهب عندك كثير .. الذهب بين يديك ..

لماذا تفتقر وتذل وتمد يدك بالسؤال ؟

وكيف يمد ابن السماء يديه إلى تراب الأرض ..

وسيدنا الشيخ كلمته حق ..

— سى عبده .. مش حتيجى تاكل لك لقمة ..

— أنا شبعان الحمد لله ..

ـــ دا أنا عاملالك محشى حا تاكل صوابعك وراه .

ـــ أنا شبعان ياوليه قلت لك .

ـــ شبعان إيه ياسى عبده . . ده انت من الضهر على لحم بطنك .

ـــ ربنا قانعنى الحمد لله .

ـــ طيب أجيب لك كوز بطاطة ؟

ـــ أنا كلت تمرتين وحمدت ربنا . .

ـــ ده أخوك ابراهيم أكل ثلاث كيزان بطاطه وهو واقف . . وكان متعشى .. تقوم إنت تنام على تمرتين .

ـــ وإمتى أخويا ابراهيم كان هنا وأكل التلات كيزان بطاطة .

ـــ فات عليك من يومين بالليل . . وماكنتش موجود . . كنت سهران فى الجامع . .

ـــ كان عاوز منى إيه . .

ـــ أنا عارفه . . أهو إنت عارف أخوك ساعات بيغيب بالسنة . وساعات بينط كل يوم . .

ـــ وينط كل يوم ليه . . له مصلحة إيه عندنا عشان ينط لنا كل يوم .. مش إحنا صرفناه بالتى هى أحسن آخر مرة كان هنا.. وقلنا له يروح لحال سبيله ويسيبنا فى حالنا . . جاى تانى يعمل إيه .

ـــ أنا عارفه بقى ياسى عبده . . أهو أخوك تعرف خلاصك فيه . . وأنا مالى . .

ــ أستغفر الله العظيم . . اللهم اخزيك ياشيطان . . اللهم اخزيك ياشيطان .. أقول إيه بس . . أقول إيه . .

ــ ولا تقول ولا حاجة . . روق . . روق كده . . وصلى ع النبي

ــ اللهم صلى عليه . .

ــ أجيب لك المحشى .

ــ لا ياستى روحى لحالك .. مش عاوز حاجة .

وذهبت زينب لحال سبيلها . . ووراءها الذيل من العطر البلدى الذى يمطعط فى الأنف والخياشيم ويدغدغ الحواس .

ومضى عبد المقصود يستعيذ ويستغفر .. ويطرد الشيطان.. وينفخ فى ضيق ذات اليمين وذات الشمال . .

أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم . .

لا حول ولا قوة إلا بالله . .

الوسواس يتخطفه . .

زينب . . وابراهيم . .

قميصه حرير . . وسلسلته ذهب . .

ولماذا يأكل ثلاثة كيزان بطاطة وزينب تقول إنه كان متعشى .

ما الذى يجعله يجوع كل هذا الجوع . .

أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم . .

إن بعض الظن إثم . .

هذا فظيع . .

ويشيح بيديه كأنه يبعد كابوساً . .
قابيل وهابيل .
لا حول ولا قوة إلا بالله ..
اللهم اخزيك ياشيطان . .
حاشا لله . . هذه فعلة لا تفعلها زينب
أى إمرأة تفعلها إلا زينب . .
زينب حبة القلب ومنى الفؤاد
النسوان أحابيل الشيطان .
ناقصات عقل ودين .
لا . . كلهن إلا زينب . .
زينب إمرأتى . . هذا غير معقول . .
هذا شك أليم لا يليق برجل دين .
لا . . لا . .
يازينب . .
يازينب . .
سى عبده . . عاوز حاجة ياسى عبده . .
ويدس عبد المقصود يده فى جيبه يتحسس القرطاس . . ويخرج
التحويجة ويأخذ فى مضغها . . واستحلابها فى فمه ببطء .
ويمشى متخاذلا إلى زوجته
وكأنه يمشى على بطنه .
لم تعد التحويجة تنفع ياشيخ معروف . .
الله يلعنك ياشيخ معروف . .

كان عبد المقصود جالساً فى مكتبته بالصنادقية يقرأ فى كتاب قديم مهلهل مكتوب عليه بالخط الكوفى « صحيح الكلام فى تفسير الأحلام . . . لفقير الأنام الصالح محمد بن الهيثم » . . . وكان يقلب الصفحات فى قلق باحثاً عن تفسير لذلك الحلم الغريب الذى رآه فى الليلة الماضية .

وكان يستعيد فى ذهنه كل لحظة من لحظات ذلك الحلم العجيب . . . كيف أنه رأى الناس يجرون خلفه . . . وأنه يجرى أمامهم . وكيف أنه ظل يجرى حتى أشرف على بحر . . . فخاض فيه . . . ولكنه لم يكن بحراً من ماء . . . وإنما بحراً من دم . . . وكيف أنه ظل يخوض فيه حتى بلغ الدم ركبتيه ثم وسطه ثم صدره . . . والناس على الشاطىء يشيرون نحوه ولا يجرؤ أحدهم على متابعته . . . بينما ظل هو يخوض فى ذلك البحر ذاهباً إلى ناحية الأفق حيث تغرب الشمس وتغرق رويداً رويداً مثل قرص أصفر هائل متوهج . . . وكيف أنه حاول أن يسبح ليبلغ الشمس فلم يستطع . . . ولكنه استطاع أن يمسك بحفنة من أشعتها ويضعها فى جيبه . . . فلسعته فى جيبه فتيقظ مذعوراً وهو يلقى بها بعيداً فى خوف . . .

وظل يرتعد من الخوف حتى طلع عليه الفجر وهو فى أسوأ حال . . . لم يسكن قلبه إلا حينما صلى الفجر . . .

وكان أول شىء فعله حينما ذهب إلى مكتبته فى بكور الصباح أن بحث عن كتاب « صحيح الكلام فى تفسير الأحلام » . . . وكانت النسخة الوحيدة التى عثر عليها نسخة قديمة مهلهلة . . . تفسخت أوراقها . . .

وترك كل شىء . . . وغاص فى الهوامش الصفراء . . . يبحث عن ضالته . . .

وكان فيما وجده فى ذلك الكتاب أمور عجيبة . . .

يقول مؤلف الكتاب إن الناس الذين يجرون خلفه هم أتباع وأشياع ومحبون . . . وأنه سيكون له أتباع كثيرون يمشى أمامهم ويمشون هم خلفه يترسمون خطاه ويستهدون بهديه . . . ولكنه سيقودهم إلى أشياء صعبة تشق متابعتها إلا على الأتقياء الصالحين الأبرار . . . وهكذا سوف يتخلفون واحداً بعد آخر بينما يتقدم هو ليخوض وحده بحر الهداية . . . وإن الدم الذى يخوض فيه حتى الركبتين هو مشقة الصلاح . . . وطريق التقى الوعر . . . وإن الشمس هى الخير العظيم . . . وإن أشعتها الراقة التى احتفن منها وملأ جيوبه هى ذهب كثير لا حد له . . . وأنه وإن كان قد امتلك من هذا الذهب الكثير . . . إلا أنه يستغنى عنه . . . ويلقى به فى فزع . . . فليس مثله من تخلبه الدنيا ببريقها وذهبها . . .

كان عبد المقصود يقرأ ذلك الكلام وهو يرتعد . . . ويتذكر ما قال له شيخ بو يحيى فيكاد يصيبه المس . .



مرة أخرى تأتيه تلك النبوءة الغريبة . . . أنه سيخوض الطريق الوعر ليسكون هادياً للناس . . . وأنه سيملك الدنيا بيمينه ويأتيه الذهب الكثير . . . فلا يستهويه بريقه . . .

وكان قلبة يدق فرحاً كأنه ناقوس يؤذن بالخلاص القريب ولم يستطع أن يلبث فى دكانته إلى موعد الغذاء كالعادة . . . كان يريد أن يفضى بما فى نفسه إلى أحد .

وأسرع إلى أبيه حيث يرقد فى سريره مشلولا شللا نصفياً حاملا صرة فيها فطير . . . ومعه كتاب ابن الهيثم يضمه إلى جوانحه كأنه يضم وليداً . .

وكان أول ما فعله حينما بلغ أباه أن ألقى إليه بخبر الحلم الغريب الذى رآه . . . وتهلل وجه أبيه العجوز واتسع فمه الخالى من الأسنان وهو يستمع . . . وقال إن الدم فى الحلم خير . . . ورؤية الشمس نصرة كبرى . . . فما بالك وقد احتفنت حفنة من أشعتها ووضعتها فى جيبك . . . هذا والله شىء عظيم لم نسمع بمثله . . .

وتناول الابن يد أبيه وقبلها ودعا له بطول العمر . . . ثم أطلعه على ما قاله ابن الهيثم فى كتابه « صحيح الكلام فى تفسير الأحلام » .

وظل الاثنان يتشاوران طويلا . . . ويتبادلان الرأى فى ما قاله الكتاب ..

ونصح الأب ابنه بأن يتكتم أمر هذا الحلم المبارك ولا يخبر به

أحداً فهناك الكثيرون من أهل السوء من أصحاب النفوس المدخولة والأرواح الشريرة تفسد ريحهم أمثال هذه الأحلام المطهرة ..

ولكن عبد المقصود لم يستطع أن يأخذ بالنصيحة .. فقد كان الكلام يلح عليه والفرحة تخنقه ولا يعرف لها مخرجاً سوى أن يتكلم ويفضفض بما رآه ويبوح لكل من يلقاه ..

وحينما اجتمع شمل الأسرة على الغذاء .. لم يستطع عبد المقصود أن يقاوم إغراء الكلام .. فمضى يحكى لامرأته على مسمع من الأولاد .. ما رأى من أمر ذلك الحلم الغريب .. وما قاله أبوه فى تفسيره .. وما ذكره ابن الهيثم فى كتابه .. « صحيح الكلام فى تفسير الأحلام » .

وكان فتحى ابنه الأكبر جالساً يقاوم الإبتسام طوال الوقت .. وكانت خاتمة هذه المقاومة ضحكة أطلقها بلا تحشم وهو يقضم قضمة كبيرة من الفطير . .

ولما رأى الأنظار كلها تتجه إليه تطلب تفسيراً لهذه الضحكة التى بلاسبب .. قال فى هدوء أنه كان يحاول أن يتذكر ما قاله فرويد فى كتابه تفسير الأحلام عن مثل هذا الحلم ..

وانفجر عبد المقصود غاضباً .. كيف يفكر فى مثل هذا الكافر المارق الضليل ويحاول أن يأخذ من كلامه تفسيراً ..

وعاد فتحى يقول فى هدوء .. ربما كان كافراً .. ولكن ما كتبه عن الأحلام هو علم محترم مأخوذ به فى الجامعات الكبرى ..

ـــ هذه الجامعات لا تخرج لنا إلا ضلالا . . وفساداً . . .

هذه الجامعات هى التى أضلتنا وأفسدتنا وأغوتنا .

هذه الجامعات هى سبب البلاء . .

هذه الجامعات . . .

وظل عبد المقصود يشتم . . ويسب . .

ولكنه لم يستطع أن يقاوم فضوله فى النهاية فقال فى غيظ :

ـــ وبيقول إيه صاحبك الضال الكافر ده . .

وأجاب فتحى وهو يبتسم هذه المرة فى خجل :

ـــ بيقول إن العوم فى البحر رمز جنسى .

ـــ إخص الله يلعنك .

ومضى فتحى يقول وقد صمم على أن يلقى كل ما عنده مادامت الزوبعة قد هبت .. وليكن ما يكون :

ـــ ومادمت ما عرفتش تعوم فى الحلم يبقى المعنى واضح .

ـــ إخص الله يلعنك . . كلب منجوس .

ورفع يده ليصفع إبنه . . ولكن هذا كان أسرع منه فى الهرب واللواذ بالباب . . . وكانت زينب تضحك . . . والأولاد الصغار يضحكون دون أن يفهموا معنى لكل هذه الضجة . .

أما فتحى الذى وقف بالباب فلم يرق له أن يجرى دون أن يقول كل ماعنده فأردف وهو يستعد للفرار :

ــ أما الشمس اللى كنت بتجرى وراها فهى أمى الحلوه .

قال ذلك وانفلت هارباً قبل أن يلحق به الكرسى الذى قذف به أبوه خلفه فى ثورة . . .

* * *

فى تلك الليلة لم ينم عبد المقصود . . وأصر على طرد ابنه من البيت بينما كانت زينب تضحك طوال الوقت وهى وتقول :

ــ إيه ده إنت جرالك إيه .. ؟ إنت خدت الحكاية جد وإلا إيه ؟

ــ ده ولد خنيس كلب منجوس . لا يمكن أبات معاه فى بيت واحد.

ــ ده كان بيضحك . . إنت حاتعمل عقلك بعقله ..

ــ ده ولد فاسد مفسد حايخسر لى كل أولادى . . ده كان لازم يروح مدرسة الأحداث . . أنا لا يمكن .

ــ طيب بس بقه إقصر الشر .. خلى الليلة تفوت على خير ..

ــ لا يمكن حافوتها عليه بخير .. أنا والله العظيم على الطلاق با الـ

ــ إيه .. إنت اتجننت يابو محمد ..

وصرخت زينب وخبطت على صدرها هاتفة :

ــ إنت حاتسوق لى أمور الجنان كمان فى البيت . . . لا أنا ما اقدرش على الحالة دى أبداً دى مابقتش عيشة .. دراويش مجانين بالليل وعيال مجانين بالنهار . . وآخر المواخر حاتيجى تحلف بالطلاق كمان . . مش كفاية إنى راضية بالهم اللى أنا فيه وعايشة فى المورستان ده . .

وانكمش عبد المقصود أمام صراخ امرأته المفاجيء .. وقال وهو يبتلع ثورته :

— يعنى يرضيكى الكلام الفارغ اللى بيقوله .. يعنى دى تربية يعنى .

— عيل صغير وعقله صغير على قده وقال كلمة فارغه .. إيه يعنى .. اتهدت الدنيا ..

— وده يبقى أدب .. وده يبقى أدب يا ناس ..

وكان عبد المقصود ينفخ ويغمغم فى ثورة مكبوتة .

— مكشوف الوش .. قليل الحيا .. كلب .

وكانت زينب تدير وجهها وتخفى ابتسامة ..

* * *

ظل عبد المقصود طوال تلك الليلة يتقلب على جنبيه وينفخ ..

ليته سمع نصيحة أبيه العجوز واحتفظ بالسر لنفسه ولم يبح بذلك الحلم لأحد .. لقد أفسدوه .. أفسدوا حلمه الطاهر .

أفسدوه بريحهم الخبيث .

كل طاهر فى هذه الدنيا يخصص له الشيطان ما يلوثه ويفسده .

لا فائدة ..

الشر يغرق كل شيء .

لا أحد يستطيع أن يعيش بمنجاة من الشر ..

الكفر والإلحاد والتجديف فى كل مكان . .

النفوس المظلمة فى كل بيت .

الأولاد الصغار يقرؤون لفرويد بدل أن يقرؤوا للخلف الصالح وأهل الله .

ومن هو فرويد .. ؟ ؟ !

كافر .. زنديق .. آبق .. مارق .. لا دين له .

يا لضيعة هذا الجيل الذى يربونه فى الجامعة وينشئونه على العلم ويؤدبونه بأدب فرويد وأمثال فرويد . .

* * *

شىء واحد ظل يدور فى رأس عبد المقصود ويعذبه طول الليل .. هو كلام ذلك الزنديق المارق .. وتفسيره الشائن .. وتصوره لحكاية غاية فى القذارة ..

فى مكتبة المهدى بالصنادقية . . عبد المقصود جالس . . أفكاره وهواجسه تدور به فى دوامة . .

يده تمتد فى آلية فيبيع للزبائن ولكنه فى ذهول عما حوله . . خواطره تهجس له بألف هاجس وهاجس . . ويبدو عليه أنه تعبان.. تعبان . .

الشيخ معروف العطار الله يلعنه . . تحويجته مغشوشة .

كنت زمان آخذ التحويجة فتشعشع مزاجى .والآن آخذها فألبث مكانى وكأنى غراره من الجبس ويثقل لسانى وأشعر برأسى وارمة كقالب من طوب . .

لاحول ولا قوة إلا بالله .

لم تعد هناك ذمة .

الناس يغشون كل شىء .

— عندك كتاب رحلات ابن بطوطة .

— لا ياسيدى ماعندناش .. خلص من زمان .

— ألقاه فين وحياتك .



ـــ يمكن تلقاه فى مكتبة المشاوى جارنا .

ـــ يفتح الله عليك .

عالم خسيس ذهبت منه البركة .

النفوس فيه ذلت .

والعقول ضلت .

والقلوب أعمتها الغواية .

إنهم يقرؤون لفرويد .

من هو فرويد هذا ؟ !

صاحب بدعة من الإنكليز .

واحد من أهل الشرك الذين أتلفوا علينا ديننا ودنيانا .

لا حول ولا قوة إلا بالله .

ـــ عندك كتاب « غاية المشتاق فى خطابات العشاق » .

ـــ أيوه يا سيدى موجود .

ـــ وكتاب التفعيلات ؟

ـــ التفعيلات والقوافى .

ـــ أى نعم .

ـــ عندى نسخه الأباصيرى .

ـــ طيب هاتها .

ـــ أنا عاوز ألفية ابن مالك ..

ـــ إدينى كتاب السيرة العطرة .

ـــ من فضلك عاوز كتاب « قراءة الطالع والكف » .

ـــ كتاب « تحضير الجان » .

ـــ واحد واحد يا أسيادنا . . ما جعل الله لرجل من قلبين فى جسد واحد .. أنا حاكلم مين ولا مين .

ـــ أنا عاوز كتاب خطابات العشاق . . أنا واقف م الأول .

ـــ ياسيدى صبرك كل واحد حاياخد طلبه . . ربنا خلق الدنيا فى ستة أيام وكان قادر يخلقها فى لحظة .. خد يا سيدى آدى طلبك . . وآدى الألفية .. وكتاب الطالع غير موجود .

ـــ طيب شوف لى كتاب « فتح المندل » .

ـــ كتاب « فتح المندل وقراءة الفنجان » .. موجود .. بس نسخة قديمة جلدتها منزوعة .

ـــ معلهش ياسيدى .

ـــ وحياتك أنا عاوز كتاب « نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار » .

ـــ الإلهامات الربانية فى الوعظ والخطب المنبرية .

ـــ بردة المديح .

ـــ ودلائل الخيرات .

ـــ صبرك بالله يا سيدى . اتفضل .. اتفضل . . ماذا جرى فى الدنيا .. لا أحد يريد أن يصبر .. الناس يجرون مهرولين كأنما لبستهم أرواح شريرة .

كل واحد يكاد يقول ياطلبي كن فيكون . .

ما عدت أستطيع اللحاق بهذا الركب المهرول .

جسدى أصابه الكلال . وحركاتى أصبحت ثقيلة بطيئة .

الشيخ معروف الله يلعنه .. تحويجته مغشوشة .

كأن فى رأسى قاطرة بخارية ..وش ...وش... وش... باستمرار.

ذراعى يتحرك بصعوبة كأنه ذراع صنم .

لا حول ولا قوة إلا بالله .

هل هى عطارة الشيخ معروف . . أم هى السن التى لم تعد تنفع فيها عطارة .

عيناى زائغتان .. أرى الشىء شيئين . .

يا محمد . .

يا محمد .. يا محمد .. هات لى فنجان شاى م القهوة .. شاى كشرى وحياتك وخلى عم شلبى يتوصى بالتلقيمة .. قول له لعبد المقصود . . قوام يا خويا والنبى .

اللهم احفظنا من كل سوء .

اللهم اختم حياتنا أحسن الخواتيم .

اللهم رضاك .

اللهم رحمتك .

رأسى كأن بها ثقالة حديد .

الشيخ معروف .. الله يلعنه .

إبراهيم ذهب إلى المرأة وأنا غير موجود وأكل ثلاثة كيزان بطاطة . أكلها كلها على بطن ممتلئة . .

ما الذى جعله يجوع كل هذا الجوع .

ماذا كان يفعل فى بيتى كل هذا الوقت .

أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم .

وهذه هى النهاية يا زينب .

وفرويد يقول إنى لا أستطيع السباحة .

الكلب .. أنا أو هو فى البيت .. لا يمكن أن أبيت فى بيت يسكنه ذلك الكلب .. إنه ليس ابنى .. ولا أعرفه .

شيخ بويحيي .. نظرة .

مدد .

أنا أخوض فى بحر من دم .

ــ الشاى يا عم عبد المقصود .

ــ الشاى لونه أحمر بلون الدم .

ــ عاوز حاجه ياعم عبد المقصود .

ــ الله يكرمنا جميعاً .

لماذا يتحرك الناس بسرعة هكذا فى الشارع . . لماذا يهرولون . . كأن العالم سينتهى كله بعد لحظة .. كأن القيامة ستقوم ..

إنهم يقفزون فى كل مكان كالجياد المجنونة تلسعها كرابيج يمسك بها زبانية من الجن لا يراهم أحد .

أعوذ بالله .

إنه عالم مخيف يجعل الواحد يرتعد .

آه .. طعم الشاى لذيذ وشهى ودافىء .

وحضنك يازينب لذيذ وشهى ودافىء ويداوينى من الرعدة .

وأنا وحيد .. والعالم كله يجرى ويتركنى وحدى .

ياشيخ بويحى .. ياقاضى القضاة .. لماذا لا تحكم لصالحى ؟

ألم تقتنع بكلام المحامى .

المحامى هو الله .

والعالم كله يتهمنى .

أنا متهم بتهمة لم أرتكبها .

أنا برىء .

الذى قتل زينب ليس أنا .

الذى قتلها هو ابراهيم .

إبراهيم هو الذى قتلها وأخفى جثتها فى قميصه الحرير .

يا سادتى القضاة .. ابحثوا فى طلب المتهم الحقيقى .

أنا برىء .

ــ أنت برىء يا سيد عبد المقصود . . نحن لم نبحث فى طلبك لنتهمك .

ــ شيخ بويحي . . سيدى ومولاى .. أنت هنا .

ــ أنت سيدنا .. أنت مولانا .. نحن هنا لنبلغك البشارة .

ــ البشارة . . ! ! ؟

ــ البشارة التى أتتك من المولى .

— يا سبحان الله .

— لقد اختارتك العناية لتكون رسولها .

— ياسبحان الله .

— تعاليت عن التهم والشبهات فأنت المقصود من كل العباد .. أنت الهادى المهدى المنتظر الذى سيقود العالم إلى بر النجاه .

— يارحمن .. يا رحيم .

— قم واحمل تبعتك .

منذ تلقى عبد المقصود هذه البشارة الغريبة وهو لا يبرح باب الحسين وقد تحول تحولا تاماً . . لا يكاد من يمر به أن يتعرف عليه فقد طالت لحيته وتمزقت ثيابه واتسخت هيئته وأصبح نحيلا ضامراً تلمع عيناه فى جحوظ غريب . . وانطلق يمشى مشية ذاهلة كأنه يخطو على الهواء يخطب ويلقى الموعظة تلو الموعظة ويلوح بيديه كأنه يكلم جمعاً غفيراً من الناس ويبتسم فى سماحة ثم يكشر فجأة ويثور ويتحمس ويغضب ثم يصفو ويضحك ويمد يديه ويصافح أشباحاً خيالية . .

حج مبرور ياسيدى . . حج مبرور . . عقبال السنة الجاية .

تتقابل فى الروضة القدسية جنب الحبيب . .

ما تنساش الوصية .

الوصية أمانة يا إخواننا .

كل واحد يروح بلده يحمل معاه الرسالة . . رسالة المهدى .

رسالة من خمس كلمات .

الرحمة لمن لا يرحم .

العفو عن الظالمين .

المحبة للخلق أجمعين .

المغفرة لسكان العالمين .

الرضا والسماحة والقبول . . ورد القضاء بتحمله

وكلمة . . يارب

يارب . .

كله فان ما عدا الواحد الصمد .

كل من عليها فان .

حى . . قيوم . . بارىء الصور .

كل هذه الدنيا وهم ياإخواننا .

كلها صور . خيالات . أحلام .

عرض زائل . .

محنة وامتحان .

كريم . . كريم .

ينجحنا جميعاً .

وهو يأكل ويشرب وينام على باب الحسين .

دكانة الكتب تركها تنعى من بناها . .

وهو أحياناً يمر بها ويحملق فى بوابتها دون أن يبدو عليه أنه يعرفها . .

أولاده . . إمرأته . . بيته . . كل هذا العالم أصبح ضباباً فى ضباب

بالنسبة له . . فهو ينظر فى وجوه أولاده ولا يعرفهم . . وهو يحملق فى وجه إمرأته ولا تبدو عليه بادرة فهم أو إدراك . .

وهو يحتضن كل طفل فى الطريق ويقول له .. ياولدى .. ويحتضن كل شيخ عجوز ويقول له يا أبتى . . ويربت على ظهر كل امرأة مسنة ويقول لها . . ياأمى . . ويستوقف كل شاب ويقول له .. ياأخى ..

ولكنه لا يعرف واحداً من الآخر . . ولا يعرف لأحد إسماً .. فالعالم كله بلا إسم . . وليس من يسكنونه بالأفراد المتمايزين ولا بالأشخاص المعينين . . كل واحد له إسم . . وإنما هو عالم من المحبة .. الأسماء فيه تتغير من وقت إلى وقت وتزول وتذهب إلى بارئها. فهى لاتهمه . .

المجنون . .

المجنون . .

كلهم يقولون إنه مجنون . . عنده لطف . .

ولاده حاولوا المستحيل ليردوه إلى صوابه ويعيدوه إلى بيته دون جدوى .

إمرأته بكت وتوسلت إليه وقبلت يديه . .

ـــ أنا زينب ياعبد المقصود .. إنت مش عارفنى . . أنا مراتك .

ـــ زينب قتلها ابراهيم . . الله يرحمها . .

ـــ ابراهيم مين . . إنت جرى لعقلك إيه . . مش حرام عليك تسيبنا فى المرار ده . . إحنا عملنا لك إيه . . الله يجازى اللى كان

السبب . . الله يجازى إللى كان السبب . .

ــ الله يسامحه اللى كان السبب .

لا أمل لا فائدة . .

إنهم يدقون على باب أغلق إلى الأبد فى وجوههم .

الرضا والسماحة والقبول . . ورد القضاء بتحمله .

الرحمة لمن لا يرحم .

العفو عن الظالمين .

المحبة للخلق أجمعين .

كلمة يارب . .

يارب . .

وأولاده يقولول « يارب » . .

وزينب هى الأخرى تقول يارب . .

ولا أمل . .

وفتحى يسب ويشتم ويلعن ويقول إنه سوف يحرق المكتبة بما فيها من ترهات . . وابراهيم المهدى مرابط فى البيت يقول لزينب كل يوم أن أخاه عبد المقصود قد انتهى . . وأنه فقد عقله . . جن جنوناً مطبقاً . . وأصبح مكانه مستشفى المجاذيب . . ولا معنى لأن يترك هكذا فى الشارع يشحذ ويجلب العار على العائلة .

ــ إحنا مستنيين إيه . . لازم نبلغ الصحة . . علشان ياخدوه ع الخانكة . .

وتخبط زينب على صدرها باستنكار وهى تصرخ . .

ــ خانكة . . ياخرابى . . والنبى ما يمكن أبداً . . أبو عيالى

ياخدوه ع المورستان فى حياتى . . لا يمكن . . لا يمكن . . ده على عينى . . على عينى . . دنا أخدمه لآخر يوم من عمرى . .

وتبكى وتمزق شعرها فى يأس .

ـــ وإيه آخرة الحزن ده يازينب . . يعنى حايرجع له عقله . . ما خلاص . . اللى كان كان . . وقضاه كده . . كأنه مات . . إيه الفرق بينه وبين الميت دلوقت . . اعتبرى إنه مات وريحى نفسك .

وتلطم زينب خديها باكية .

ـــ مات . . وده كلام تقوله ياسى ابراهيم . . وأنا يهنالى عيش من بعده .. وأنا حاعرف طعم الراحة من بعده أبداً . . ويصح برده تقول كلمة زى دى ياسى ابراهيم .

ـــ ما أنا مش هاين على أشوفك فى الحزن ده .

ويميل عليها ويمسك يدها فى رفق ..

ولكنها تنزع يدها من يده فى غلظة وتنظر إليه نظرة خشنة فيها حزن ووحشى لا حد له .

الرحمة لمن لا يرحم . .

العفو عن الظالمين .

المحبة للخلق أجمعين .

الرضا والسماحة والقبول . . ورد القضاء بتحمله .

إنه مجنون فعلا ..

مجنون جنوناً مطبقاً ..



كيف يمكن أن نرحم من لا رحمة فى قلبه .

وكيف نعفو عن ظالم .

وكيف نمنح المحبة للخلق أجمعين . والخلق جميعاً ذئاب ضارية . .

مجنون عبد المقصود . .

لا .. بل مسكين .. فهذه حياة لا يمكن أن يعيشها الإنسان دون أن يجن .

هكذا تفكر زينب فى زوجها .

وتضع يدها على خدها . . وتبكى فى صمت .. وتدعو فى سرها بالخراب على كل المشايخ الذين أفقدوا الرجل الطيب عقله .

ولكن شيئاً واحداً لا تفهمه .

لماذا يقول عبد المقصود .. إنها ماتت . . وأن ابراهيم قتلها .

أى شكوك غريبة تعشش فى عقله .

ماذا يصور له جنونه .

ماذا يتصورها .

* * *

وابراهيم الذى يجد بيت أخيه مغلقاً فى وجهه .. ولا يرى من امرأة أخيه إلا العبوس الدائم .. يصور له يأسه عدواً واحداً هو عبد المقصود المعتوه الذى حمل اسم العائلة ومرغه على الأرصفة .

وابراهيم يفكر فى الخلاص على طريقته .

والخلاص على طريقته هو الخلاص من عبد المقصود .

وهو لا يعود ليأخذ الإذن من زينب هذه المرة وإنما يتجه لتوه إلى مكتب الصحة ليبلغ الطبيب أن له أخاً مجنوناً يخشى منه على أمن الناس وسلامتهم .

* * *

وهكذا يضعون عبد المقصود فى « قميص الكتاف » ويشحنونه مع مخصوص إلى الخانكة وهو يصرخ ويلوح بيديه .

الرحمة لمن لا يرحم .

العفو عن الظالمين .

المحبة للخلق أجمعين .

الرضا والسماحة والقبول .. ورد القضاء بتحمله .

كلمه يارب .

الوصية أمانة يا اخواننا .

كل واحد يروح بلده يحمل معاه الرسالة .. رسالة المهدى .. رسالة فى خمس كلمات . .

الرحمة لمن لا يرحم .

العفو عن الظا .

ولكنهم يضربونه على قفاه ويسكتونه . .

ويقهقهون بشدة .

لم يكن « المهدى المنتظر » يرقد وحيداً فى سريره بالخانكة . .
فإلى جواره كان يرقد رجل يضع ثلاث ريشات على رأسه ويقول
إنه « نابليون » . وفى الجانب الآخر من الغرفة رجل ثالث بعمامة
يقول إنه « هارون الرشيد » . . وفى الركن رجل رابع له لحية يقضى
طول النهار يرسم ويسمونه « بيكاسو » .

وكان بيكاسو يضع أمامه ورقة كبيرة يخطط فيها بالفحم ويعبث
فى لحيته بين وقت وآخر ويرمق الرسم من بعيد ويغلق عيناً ويفتح عيناً
ويرفع حاجباً وينظر فى تمعن . .

ثم قام فجأة يحمل اللوحة وبسطها أمام الجميع قائلا فى هدوء . .

— عارفين . . مين ده . .

وأقبل النزلاء الواحد بعد الآخر وراحوا يحملقون فى الورقة
ويغمغمون .

— مين . .



وأشار بيكاسو إلى رسم فى الوسط يشبه الجبرى وهو يقول :

ـــ صورة سيدنا آدم .

وراح نابليون يتأمل الصورة فى إمعان ثم قال فى صوت واثق .

ـــ لأ . . مش سيدنا آدم . . ده كليبر . . أنا عارفه . .

وأشار إلى نقطة فى الرسم قائلا فى بساطة :

ـــ وده النيشان اللى اديته لـكليبر بنفسى . .

وكان كل مرضى العنبر قد تجمعوا حـــول الورقة وراحوا يتخاطفونها . . حينما وقف نابليون وقفة عسكرية وضرب الأرض برجله صارخا . .

ـــ انتبـاه

ثم بدا يخطو فى مارش نحو الباب . . بخطوات منتظمة فيهـا عظمة واختيال . .

وعند الباب توقف وتلفت مرتين قبل أن يقول مرة أخرى . . انتباه . . وكان جمع من الزوار يسيرون ومعهم التورجى . . وكان اليوم يوم زيارة . . وكل زائر يحمل فى يده صرة أو لفافة أو حقيبة صغيرة . .

وكانت زينب تبدو فى آخر الممر تترنح فى طريقها ذاهلة تحملق فى الجدران الرمادية الـكالحة بعينين دامعتين . . وتتوقف عند كل خطوة تسأل :

ـــ عنبر ٩ هو ده ياسيدى

ـــ بتسألى عن مين ياست

ـــ عن عبد المقصود . . عبد المقصود الها ى . .

ـــ عنبر ٩ قدامك أهوه

وكانت تبدو ذابلة ناحلة وقـــد انطفأ بهاؤها وكأنها كبرت عشرين عاما . .

وتقدم نحوها تمورجى . .

ـــ عاوزه مين ياست

ـــ عاوزة عبد المقصود الهادى المهدى . .

وابتسم التمورجى وهو يقول :

ـــ المهدى المنتظر . . ده عندنا . . اتفضلى من هنا . .

ثم مال عليها وهو يقول بنغمة ذات معنى وهو ينظر إلى الصرة التى تحملها :

ـــ الكبريت ممنوع ياست . . والسجاير . . وبوابير السبرتو .

ـــ مفيش كبريت ولا سجاير ولا بوابير سبرتو . .

ولما لم يجد منفذاً إلى غرضه عاد يقول فى تحذير . .

ـــ والأكل ممنوع كمان .

ومدت يدها لتضع فى كفه خمسة قروش . . فابتسم ابتسامة لزجة وهو يأخذها من يدها . .

ــ اتفضلى من هنا . .

ودخلت العنبر . .

كان طابور نابليون واقفاً بالباب . . وكان عبد المقصود منزوياً فى ركن وحده يتمتم على سبحة فى يده . .

وأسرعت إليه زينب واحتضنته ورفعت وجهه فى قلق ونظرت فى عينيه . .

وكانت عيناه حمراوين وارمتين وخداه هضيمين وعظام وجهه بارزة وشفتاه شاحبتين ورأسه محلوقا بالموس وشكله غريباً وهيئته مريضة وكان يبدو أكثر ذهولا مما كان ..

وأجلسته على الفراش وجلست بجواره . . وكان مايزال يتمتم على مسبحته .. وقال التمورجى وهو ينظر إليه :

ــ أصلنا عملنا له جلسة بالكهربا . . عشان كده تايه شويه . . لكن بكره حايتحسن . . وحانعمل له كل أسبوع جلسه . . وحايخف ويرجع لك بإذن الله . .

وقالت زينب هامسة وهى تسأل التمورجى :

ــ لسه برضه بيهلوس ؟

ــ بعد الكهربا بطل هلوسه . . وسكت . . وقعد لوحده فى ركن زى ما انتى شايفه .

ــ والكهربا دى بتتعب ؟

ـــ لا أبداً . . دى مفيش حد بيحس بيها . .

وعاد يتكلم تلك الكلمات اللزجة وهو يفرك يديه :

ـــ هو معقول برده حايتعب وأنا موجود . . امال أنا فين . . دنا يوم الكهربا ماباسيبوش أبداً . .

ـــ كتر خيرك . . كله عند ربنا ما بيروحش . . ده راجل طيب عمره ما أذى حد . . الله يجازى اللى كانوا السبب . .

وكأنما تيقظ عبد المقصود من غيبوبته فقال بصوت متهدج :

ـــ ربنا يسامح اللى كانوا السبب . . ربنا يرحم الجميع . . ربنا يرحم الجميع . . واجبنا طلب الرحمه لمن لا يرحم . .

ومسحت زينب دمعة سالت على خدها . . وفتحت الصرة التى أحضرتها وأخرجت منها دجاجة وضعتها أمام عبد المقصود . . ونظرت إلى التمورجى الذى يحملق فى الصرة وأعطته حفنة برتقال . .

وكان عبد المقصود قد بدأ يأكل فى آلية ويمضغ فى حركة غريزية كأنه حيوان . .

وعادت زينب تسأل التمورجى فى قلق :

ـــ الظاهر إنكم مش بتأكلوهم هنا أبداً . .

ـــ ومعقول برده ماناكلهومش . . ده خصوصاً الراجل المبروك ده . . أكبر حتة لحمة وأحسن صنف جبنة بيطلع من المطبخ بخليه له

ـــ ده خاسس النص ياعينى .

ـــ معلهش . الكهرباء بتعمل فى الأول كده . . لكن بعدين

حا يسمن ويرجع أحسن م الأول .

ووضعت زينب يدها على خدها فى حسرة وهى تقول :

ـــ الله يجازى إللى عملوها فينا . . أهم راحوا السجن . .

ورفع عبد المقصود وجهه عن الدجاجة و نظر إليها لأول مرة .

وأردفت زينب فى راحة :

ـــ أهو راح السجن . . أخوك إللى رماك الرمية دى ربنا رماه فى السجن . . خدوه فى الحديد وحطوه فى عربية المساجين مع المجرمين . . ربنا ما بيفوتش لحد أبداً .

ورفع عبد المقصود كمه المتسخ ومسح عينيه وبدأ يبكى .

ـــ إنت بتعيط على إيه . . هو ده يستاهل حد يعيط عليه . . إللى كان بيا كل مال الفلاحين الغلابة . . ده كان بيسرق الكيماوى بتاع الفلاحين . . ويبيعه . . ده ضبطوا عنده مخزن فيه بألف جنيه آلات رش سارقها من التعاونية . .

وكان عبد المقصود يبكى ويمسح عينيه ويتهته .

ـــ لا إله لا الله . . لا إله إلا الله . .

وزينب تقول فى صوت جاف .

ـــ كل واحد بياخد إللى يستحقه . . والظالم عليه إللى أقوى منه .

وكان عبد المقصود يتهته . .

ـــ العفو عن الظالمين . . الرحمة لمن لا يرحم . .

وكانت زينب تقول بصوتها الجاف :

ـــ الرحمة لمن لا يرحم بيروح فيها إللى بيرحم ..

وعبد المقصود يتهته :

لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ..

وأخرجت زينب برتقالة وقشرتها له .. وكانت عيناها قاسيتين جامدتين تدوران فى محجريهما وتتلفتان فى العنبر فى يأس ..

وعاد التمورجى يقول بصوته اللزج :

ـــ بنصرف له شاى كل يوم .. شاى مخصوص عشان خاطرك .

وأردف وهو يفرك يديه ..

ـــ مع أن الشاى ممنوع .

وقالت زينب فى يأس .

ـــ هو فيه إيه هنا مش ممنوع .. إذا كان الأكل ممنوع ..

وقال التمورجى فى حماس :

ـــ كل ممنوع بيهون عشان الناس الغاليين الطيبين إللى زى سعادة البيه ..

وأردف فى نغمة فيها استعداد لكل خدمة :

ـــ كلنا عارفين إن سعادة البيه راجل مقامه كبير .. ومدير قد الدنيا .. وكلنا بنسهر على راحته .

ورفعت زينب نحو التمورجى عينين فاحصتين .. وكادت تقول له إنه أخطأ السكة .. ولكنها ترددت قليلا ثم دست فى اليد الجشعة الممدودة عشرة قروش أخرى .. وقد آثرت أن تروج هذه الإشاعة التى لا تضر .

إشاعة البيه الكبير . . والمدير إلى قد الدنيا .

وكانت الجدران الكالحة الغبراء ترتفع أمام عينيها رهيبة تطحن داخلها كل هذه الأشباح . . ولا أمل .

لا أمل إلا أن يكون الواحد بيه كبير . . ومدير قد الدنيا . . ربما تشفع له هذه الإدارة . . وهذه الإمارة . .

وكانت تحملق حولها ذاهلة حينما تقدم منها هارون الرشيد وهو يبتسم إبتسامة واسعة ويعدل عمامته ويصفق بيديه منادياً .

— ياجعفر . . ياوزيرى جعفر .

وقبل أن يتم جملته كان التمورجي يعاجله بكف على قفاه وشلوت ويطارده حتى باب العنبر .

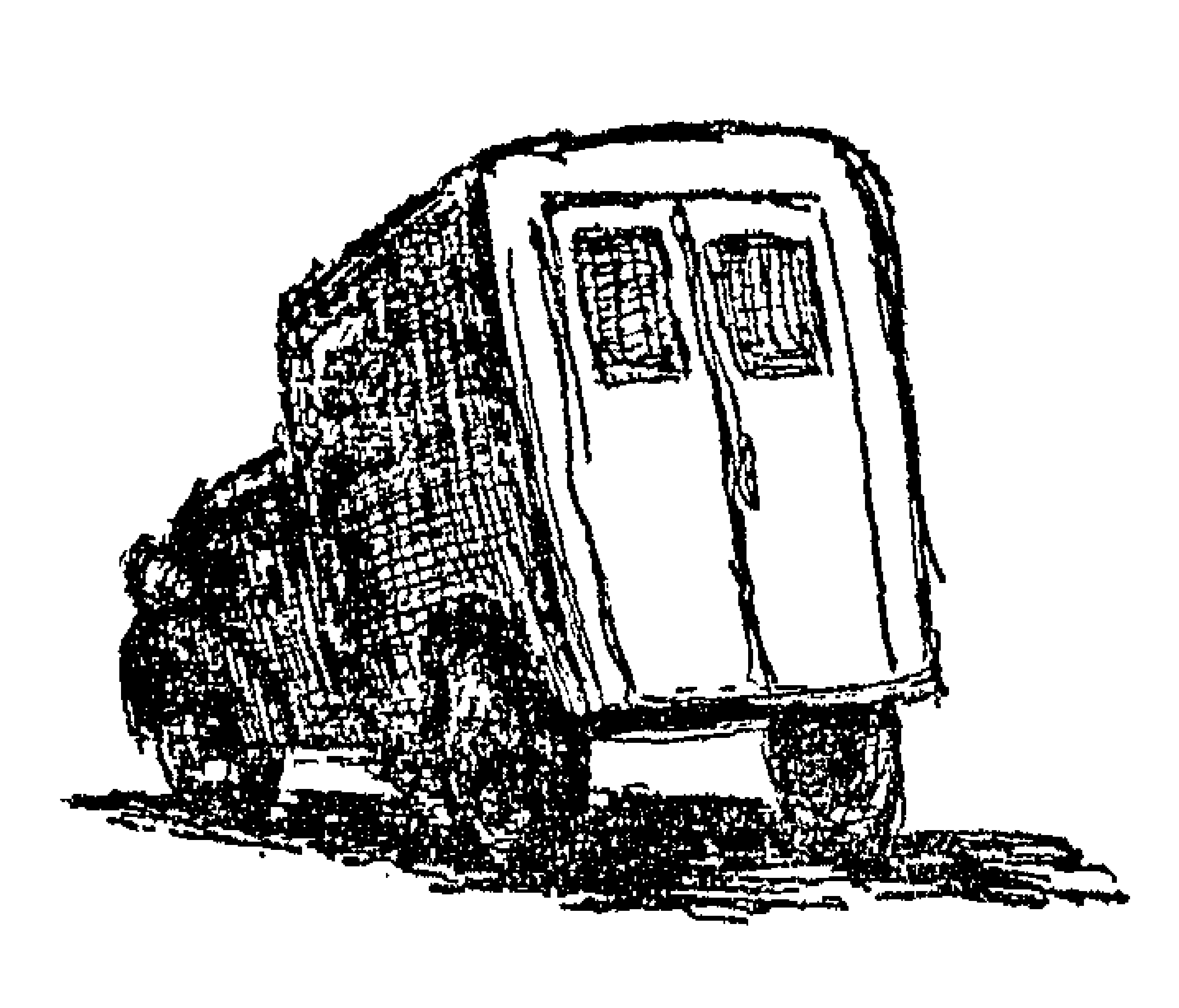
وكانت زينب ترتجف من الرعب وهى متشبثة بعبد المقصود .

وعبد المقصود يهمس بصوته المتهافت . .

الرحمة لمن لا يرحم .

العفو عن الظالمين .

المحبة للخلق أجمعين .



لم يجد فتحى بدآ من الجلوس
فى مكتبة الصنادقيـــــة ليبيع
ما تقتات به الأسرة . فأبوه فى
المستشفى وعمه فى السجن وجده
مشلول فى البيت .. ولا توجد
طريقة أخرى لأكل العيش ..
وكان عملا كريها يمقته ..

هذه الكتب . .

لو كانت له حرية التصرف وكان له مطلق اليد لأحرقها كلها . .
مثل هذا الكلام الذى يبيعه لا يمكن أن يكون فيه خير . .
ولا يمكن أن يكون طريقاً إلى هداية .. وإنما هو تضليل فى تضليل ..

هذا ما كان يدور فى رأسه . .

وأكثر من مرة حاول أن ينفض يديه من تلك المكتبة . .

وفى كل مرة كانت أمه تبكى وتقبل يديه وتقول فى توسل :

ـــ التلاتين جنيه اللى بنكسبهم إحنا أولى بهم . .

ولكنه ليس كسباً ذلك الذى يكسبه . . إنه خسارة . .

البلد تسير نحو الخير وتتقدم نحو مستقبل مشرق . . بينما يقف هو ليروج مطبوعات الدراويش والمشعوذين .

هذه جريمة . .

ـــ لو ما بعتش الكتب دى فى غيرك حايبيعوها . . دا ملك منظمه سيده . هو إنت خلقت الكون . . إنت عاوز تغير الدنيا فى ثانيه . .

ـــ أيوه عاوز أغير الدنيا ف ثانيه . .

ـــ كان غيرك أشطر ... العالم بقى له ألوف السنين عايش فى الكلام ده . . حاتيجى إنت على آخر الزمن تغير له عقله . .

ـــ أيوه حاغير له عقله . . لازم أغير له عقله . .

ـــ العالم مش حاياكل ولا حايشبع لو بطلنا نبيع كتبنا . . إحنا اللى حانجوع . . أبوك الغلبان اللى دابت هدومه فى المستشفى هو اللى حايجوع ويتعرى . .

وكان فتحي ينهار حينما تأتى ذكرى أبيه . . كان يشل تفكيره تماماً .. ولا يملك كلمة يرد بها ..

عواطف البنوة . . وروابط الأسرة . . وتلك الأشياء التى إسمها الإنسانية .

لا مفر . .

لابد من قبول الواقع على مضض .

ليس فى الإمكان أن نغير أحوال الناس طفرة دون أن نوقع الضرر والظلم بالجميع .. هذه هى المأساة ..

حى .. حى .. سبحان من له الدوام .

الأمر لله . والملك لله .. الشافى هو الله .. والهادى هو الله .. والرازق هو الله .. كله من عنده . .

ياإخواننا إياكم وأكل المال الحرام ..

كله بيروح ..

كله بيروح ..

صلوا على كامل النور ..

الأكل الحلال .. والرزق الحلال . . ونظافة الظاهر . . ونظافة الباطن . . وحسن النية . . وطيب الخلق . . والدعوة المباركة .. وكلمة يا رب .. هى مفاتيح الجنة ..

الصلاة وجبت ياسيدنا .. مستنى إيه ..

لا تطلبوا غير الآخرة ..

الحكاية هاتقضى بإذن الله .. بس الكلمتين إللى قلت لك عليهم . .
طاوعنى . توكل على الله . واقراهم وحط الحجاب تحت راسك بالليل .
مش مهم ياسيدى .. هات إللى فيه القسمة . . القليل يرضينا ..
مدد يا حسين . . مدد . .
بخور من مكة . . من بلد الرسول . .

ودخلت موجة من البخور الدكان .. وغرق الدكان فى الدخان الأزرق الكثيف وشعر فتحى أنه يختنق .. وأخذ يسعل بشدة ويروح بيديه ويسب ويلعن الدراويش . المخابيل . . المهابيل .. المساطيل . .

تجار الأفيون والمغيبات والمكيفات .
عطارو الأوهام والأحلام بالجملة والقطاعى ..
كل مرض له حجاب ..
كل مشكلة لهـا تعويذة ..

فى القرن العشرين . . فى عصر الفضاء . . والذرة . . والصواريخ
كهنة آمون يبيعون الأيقونات على الأرصفة .. ويعالجون الرمد بالتوتيا الزرقاء ويكتبون روشتات هيروغليفية على ورق البصل .

هل يضحك
هل يبكى . .
هل يجن ..
هل يمشى على رأسه . . ! !

لامعقول صنع مصر .. بضاعة محلية عربية مصرية مائة فى المائة .. عليها ختم السيد البدوى . . وضمانة وزارة الأوقاف لمائة سنة قدام ..

أسواق للنخاسة يتفرج فيها السياح على العقل وهو يباع بيعاً علنياً .. مشروعاً .. مرخصاً ..

خانكة .. عباسية ..

هذا ميدان يجب أن تقام فيه مذبحة مثل مذبحة القلعة يجمع فيها كل هؤلاء الخابيل وتعلق رءوسهم وتحرق تعاويذهم .

ــ رحمن .. رحيم .. حى قيوم .. لا سواه ولا عين تراه . كاشف الغم .. فارج الهم . . مجيب دعوة المضطرين .. أحد .. أحد .. أحد . . صمد ..

شيخ بو يحيى . . هو شيخ بو يحيى بعينه . . بلحيته وعصاه وسبحته ومقرعته . .

أس البلاء .. وسبب المصائب .

الشيطان بلحمه ودمه ..

هذه المرة لن يفلت من يدى حياً ..

وتجمعت ثورة فتحى كلها فى يديه .. واعترض طريق الشيخ وانقض عليه وأمسكه من رقبته . . وراح يهزه فى حنق . .

تانى مرة ياراجل يامخبول . . لو شفتك فى الحتة دى . . حاقطع خبرك . سامع . . حاقطع خبرك . .

ولكن الشيخ بو يحيى كان قوياً كثور وكانت له رقبة غليظه كأنها مبنية بالأسمنت .. وكان يدفع فتحى بقوة وهو يقول فى هدوء غريب:

ـــ على مهلك ياسيدى . . على مهلك . . عاوز تعمل إيه . . عاوز تموت راجل ميت . . ماتسيب الحكاية دى لعزرائيل . . إنت مالك . . تشيل ذنوب ليه . . لا إله إلا الله . .

وكان الناس قد بدأوا يتجمعون من كل مكان فى الشارع . . ولكن الشيخ راح يصرفهم بيده فى غضب . .

ـــ كل واحد يروح لحال سبيله . . واقفين كده ليه يا اخواننا .

عمركو ماشفتوا اتنين بيهزروا مع بعض . . لاحول ولا قوة إلا بالله . . هو هزار الأحبة حرام .

ومضى الشيخ يضربهم بمقرعته .

وبدأوا يتضاحكون . .

ولم يسع فتحى إلا أن يضحك هو الآخر فى غيظ وهو يتأمل هذا الشيخ المخبول الغريب الأطوار . .

أما الشيخ فقد جلس على باب المكتبة بلا دعوة . . وأخرج علبة سعوطه . . ومضى يتنشق . . ويعطس . . وينظر إلى فتحى بجانب عينه مغمغماً فى سخرية . .

ـــ طظ فيك الله يخليك . .

الله يخليك فى حالك والنبى . .

والنبى تخليك فى حالك وتسيب التاريخ فى حاله . .

وإنت مالك يا أخى . . تحشر نفسك فى بكره ليه . . إنت عارف بكره جاى والا مش جاى . . يمكن مايجيش . . مش تعيش النهارده

كويس أحسن . .

وانفجر فتحي مغيظاً . .

— ماإحنا مش عارفين نعيشه كويس . . مش عارفين نعيشه كويس ياشيخ يامخبول . .

— نبقى نموته كويس . .

وفى ثورة من الغيظ عاد فتحي يمسك بالشيخ ويهزه من كتفيه . .

— أنت راجل مجنون . . مجنون .. إزاى تطلب منا ان احنا نموت كويس . .

— مش أحسن مانموت بعض . . مش احسن مانقتل فى بعض .

وفجأة بدأ الشيخ يبكى ويغمغم .

— ماهى كلها موته ياعبد الصمد . . حانموت . . حانموت . . نبقى نموت على الطيب أحسن . . ماهو مفيش فايدة . .

وعاد فتحي يهزه بشدة . .

— لأ فيه فايدة ياشيخ ياعبيط .. فيه فايدة . .

— وريني الفايدة ياعبد الصمد .

— حاوريك الفايدة . .

— أبوس إيديك وريني . .

— حاجيب لك جلابية جديدة ياشيخ ياعبيط . . حانضفك . حالبسك . .

ـــ على مهلك ياعبد السلام . . خطوة خطوة ياعبد السلام . . هات الطاقية قبل الجلابية ياعبد السلام .

ـــ حادخل النور والمية فى بيتكم .

ـــ مش تدخل النور فى قلبى الأول . .

ـــ بذمتك عندك نور وميه فى بيتكم ياشيخ ياعبيط . .

ـــ ماليش بيت ياعبد الصمد . . أنا بيتى على باب الله . .

ـــ وعاوز كل الناس يبقوا متشردين زيك ياشيخ ياعبيط ..

ـــ مايقدروش ياعبد الصمد ..

وعاد فتحى يهزه فى غيظ ..

ـــ إنت راجل مجنون ياشيخ بو يحيي .. راجل مجنون لازم تتحط فى مستشفى المجاذيب . . هناك حايدخلوا فى عقلك نور وميه ومجارى ياراجل يامجنـــون .. أنا لازم أوديك الخانكة زى ماوديت أبويا . .

وخلص الشيخ بويحيي نفسه من يدى فتحى ومضى مبتعداً فى الظلام وهو يغمغم مشيحاً بيديه بين كلمة وأخرى . .

ـــ أبوك ودته رجليه ياعبد الصمد . . حبه فى الدنيا هو اللى وداه . . أبوك عمره مامشى ورايا أبداً . .

وأسرع فتحى خلف الشيخ . .

ـــ تعال هنا ياراجل يامخلول . .

واختلط الشيخ بعشرات الرءوس فى الزحام . .

— عليكم السلام ياعبد السلام .

— امسك ياجدع عندك الراجل المخلول ده . .

ولكن الراجل المخلول كان قد اختفى فى الناس . ولم يعد ممكناً العثور عليه فى الزحام . . ووقف فتحى يتلفت حوله فى حيرة وإشفاق ودهشة .

والظاهر إن وقفته قد طالت لأنه لحظ أن السيجارة فى يده قد احترقت عن آخرها وبدأت تلسع أصابعه .

هذه البلبلة . . لا يمكن أن تؤدى إلى شىء . .

ربما كان شيخ بويحي رجلا مبروكا ..

لا أحد يعلم . .

هناك مليون شىء وشىء فى هذه الدنيا لا نعلمه . .

ولكن جهلنا لا يمكن أن يكون عذراً لنمشى فى الشوارع نهذى ذلك الهذيان الملتاث . .

لابد من عمل ..

لا بد من عمل ..

لا يمكن أن تتوقف الدنيا لمجرد أن هناك أشياء نجهلها ..

مثل هؤلاء المبروكين لابد أن تحدد إقامتهم فى تكايا حتى لاينطلقوا هكذا يبلبلون العقول . .

لابد من خطة لتنظيم هذا الفيض من البركة قبل أن يغرقنا طوفانه . .

ـ حى . . قيوم . . واحد . . أحد . . صمد .. رحمن . . رحيم .. كاشف الغم . . فارج الهم . . مجيب دعوة المضطرين .

على مهلك ياعبد السلام على مهلك .

على مهلك لاتتكعبل .

خطوة خطوة ياخويا ..

(إنتهى)

المطبعة العالمية ١٦,١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

للمؤلف

الله والانسان .. (مقالات)

ابليس .. (مقالات)

أكل عيش .. (مجموعة قصص قصيرة)

عنبر ٧ .. (مجموعة قصص قصيرة)

المستحيل .. (رواية)

الزلزال .. (مسرحية)

الغابة .. (عن رحلة فى السودان وكينيا وتنجانيقا)

اينشتين والنسبية .. (دراسة)

لغز الموت .. (دراسة)

شلة الانس .. (مجموعة قصص)

الاحلام .. (دراسة)

اعترفوا لى .. (من رسائل القراء)

يوميات نص الليل .. (مقالات)

فى الحب والحياة .. (مقالات)

الافيون .. (رواية)

تحت الطبع

٧٠ مشكلة حب

الانسان والظل

دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

ص
٢٥

